السيرة الذاتية لفتاة ليل

أكتب

قصص

إياد حرفوش

السيرة الذاتية لفتاة ليل / قصص

إياد حرفوش

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٩٢٥١٥٩٢ – ٠١٨٢٢٣٦٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

إياد حرفوش

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٣٠١١

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٠٦-٣

السيرة الذاتية لفتاة ليل

قصص

إياد حرفوش

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى السيدة الكريمة التي قامت دائما بما يفوق واجبها نحو أسرتنا الصغيرة، لتتيح لي توجيه وقت فراغي من عملي المهني لاهتماماتي الأدبية والفكرية، فلولا زوجتي الحبيبة ما خرج هذا العمل ولا ما سبقه ولا ما يعقبه من إصدارات للنور، فإلى زوجتي د/ نهلة الدقادوسي أهدي عملي هذا شكرا وتقديرا

المؤلف

شتاء ٢٠٠٨م

السيرة الذاتية لفتاة ليل

(١)

حوار ما بعد العاصفة

انتهى كل شيءٍ كأن لم يكن في تلك الليلة المطيرة من شتاء الإسكندرية، خمدت نيران غريزته في لحظة كأنها لم ترهقه طوال الأسبوع الماضي ولم تتأجج ملتهبة حتى لحظات مضت، وهكذا حاله مع البغايا دائما، فذئب الرغبة الذي ينبح في كل خلية من خلايا جسده لا يلبث أن يتثاءب وينام بعد أن يقضي وطره، تاركاً صاحبه وهو يتوق للنوم هو الآخر، غير أن النوم بينما فتاة ليل ترقد بجواره قد تعقبه صدمة في الصباح التالي، يفجع فيها باختفاء ما خف حمله وغلا ثمنه من شقته العريقة المشرفة على ميدان الخرطوم في قلب الإسكندرية، حكمة تعلمها من سنوات التسول العاطفي، لهذا تمنى دائما لو ابتكر لنا الأمريكان "بغايا ورقية" كتلك المناديل والمحارم الورقية، بحيث يكون بوسعه أن يكومها بيده ويلقي بها من النافذة بعد أن

يطفيء لهيب شهوته، فقد سمع ذات مرة في إحدى الفضائيات شيخا يقول أن الله سبحانه قد سخر لنا الغرب الكافر ليبتكر لنا ما نحتاج إليه، لنرتاح نحن ونستهلك على الجاهز! لكن العلم مازال قاصرا في هذا المضمار، فليس من بائعات الهوى بد لمن كان مثله، أو هكذا يعتقد .

استلقى "أكرم" بجوارها على الفراش في حجرة نومه التي تشي تفاصيلها بليلة حمراء أعد لها بإتقان، وبذوق رجل يعرف كيف يتذوق اللحظات الحميمة حتى مع البغايا، فالتكييف مضبوط على درجة حرارة متوسطة تسمح بشعور الدفء الحميم ولا تؤدي للموت عرقاً، وزجاجة فودكا "فنلانديا" ممتلئة حتى ثلاثة أرباعها على الخوان بجوار الفراش، مما يؤكد أننا في أول الليل كما تقول عقارب ساعة الحائط مشيرة للعاشرة مساء، وزجاجة الخمر في بيت عازب مثله قد تكون أصدق كمؤشر للوقت من ساعة لا يضبطها حتى مع تغيير التوقيت، بجوار الفودكا استقرت على الخوان بضعة علب من نوع السجائر الإنجليزي الذي يفضله، أما السرير الذي يتجاوز عرضه المترين ونصف المتر فكان مغطى بملاءة من مخمل أبيض يفضله كخلفية لونية للجسد الأنثوي العاري، وعلى الخوان الآخر استقرت علبة من حلوى "شارع الجودة" الشهيرة باسم

ماكنتوش، هو لا يستخدم مزات مع الخمر عادة، ويتعجب من ذوق بعض الفتيات من محدثات الخمر ممن يفضلن الحلوى كمزة لأنها تذهب بطعم الكحول اللاذع، وهن جاهلات بآثارها السلبية مع الشراب، وباستثناء هذه العلبة كان كل شيء كما اعتاده قبل الخروج من جنتها .. أو بالأحرى قبل أن تأمره بقايا كرامته بالابتعاد عنها .. عن الحبيبة التي كانت، فيجد نفسه مضطرا لاصطناع الجو الموحي الذي تعوده معها على سبيل الاستعاضة! ولكن هيهات أن يستعيض عن جنتها بأوحال العاهرات، كان يخدع نفسه ويعرف ذلك يقينا لكنه يستمريء هذا الخداع الذي يبرر انحرافه.

أما التفصيلة الأكثر غرابة على الإطلاق في مسرح الليلة الحمراء، فكانت تلك الموسيقى المنبعثة من جهاز تشغيل الاسطوانات المدمجة على التسريحة، إنها موسيقى "شهرزاد" للعبقري الروسي "ريمسكي كورساكوف"، كانت حبيبته تحبها وتسترخي على أنغامها، فتعود أن يسمعها معها في تلك اللقاءات الحميمة المتباعدة، ولم يتخلص من هذه العادة حتى بعد أن انقطعت علاقته بها، وكم عانى من تعليق الساقطات على تلك الموسيقى التي أدمنها في اللحظات الحميمة، قالت له إحداهن مرة بلهجة لاذعة السخرية:

ـ حلوة دماغ ألف ليلة وليلة دي! إوعى تكون م اللي بيقضوا الليلة حواديت!

كان من الصعب طبعا أن يشرح لها الظروف والملابسات العاطفية التي ربطت "شهرزاد" في عقله الباطن بالممارسة الحميمة، ولهذا لم يجبها على الإطلاق، أف لهن جميعاً! أكثر ما يكرهه في علاقاته تلك هو يقينه أن تلك المرأة الراقدة بفراشه ليست هنا لأنها تحبه، ولكن لأنه مجرد عميل تجب عليها خدمته لتكسب عيشها، ما أحقر الحب حين يمسي صناعة وسوقا للحم رخيص! نظر لتلك الراقدة إلى جواره، ثم قام معتدلا في الفراش وتناول علبة سجائره فأشعل سيجارتين وناولها واحدة، أخذ نفساً عميقاً ونفثه وهو يحدق بلا هدف، فسألته لو كانت لديه سيجارة حشيش، أجابها بأنه لا يدخن المخدرات، فعلقت برقاعة:

- يا مؤدب!

تجاهل سخريتها الوقحة، فمن يعاشر الساقطات عليه ألا يلقي بالاً لفحشهن في القول والفعل، كلماتهن الفاحشة ما هي إلا مسكنات يحرصن على تعاطيها دائما، فمن تمارس البغاء يتعين عليها أن تنظر للعالم من أقذر زواياه، وأن تسمعه بأفحش لهجاته، حتى تحتمل ما هي غارقة فيه من الهوان ليلا ونهارا، أما

المشاعر الرقيقة والكلمات المهذبة فتلهب نفسها كما يلهب الماء البارد جلدا أكلته النيران، لأنها تذكرها أن العالم مازال مسكونا ببعض البشر ما يهمه الآن هو كيف يتصرف في كتلة اللحم العاري المكومة فوق فراشه؟ جسد بشري مؤجر له بموجب عقد غير مكتوب ولمدة ليلة كاملة لم ينقض منها إلا ربعها الأول! وهو لا يشعر بأدنى رغبة لممارسة لعبة الجنس مرة أخرى، ولا يحسب أن رغبة في هذا ستحل به الليلة، فذاك الصداع اللزج في مؤخرة رأسه يجعل تفكيره في إعادة الكرة شبه مستحيل، وكانت عادته في حالة كهذه أن ينقد فتاة الليل أجرها ويصرفها لحال سبيلها، لكن هذا غير ممكن الليلة، فقد وعدها حين توافقا في ذلك البار العتيق بوسط البلد أن يسمح لها بقضاء الليلة عنده حتى مطلع الفجر، فهي لا تستطيع العودة لمترلها في الورديان إلا صباح اليوم التالي، وإلا تعرضت لسخافات شباب الزقاق الذي تسكنه، وأدنى هذه السخافات تحرشهم بها جسديا، أما أفظعها فسطوهم على ما معها من نقود حازتها "بالعرق والكد" وفقا لتعبيرها، هكذا أوضحت له أول الليل، والرجل في أول الليل — وقبل بداية اللعبة — عادة ما يكون كريما جدا في إلقاء الوعود يمينا ويسارا، ونفس الرجل عادة ما يتهرب من الوفاء بتلك الوعود في آخر الليل، لكن "أكرم" مع ذلك لا يحب أن يخلف وعده فيصبح هو والزمن

عليها، يخرجها من مترله ليسطو على أجرها أحد "البرمجية" الساهرين على نواصي حارات الورديان وأزقته الضيقة، ربما .. ربما كان متعاطفا معها، و لم العجب؟ لقد علمته سنوات الخواء العاطفي التي عاشها أن حياة البغايا ليست حياة رغدة بحال من الأحوال، بل لعلها من أشقى صنوف الحياة وأكثرها هوانا .. هكذا تداعت الأفكار في رأسه حتى برق في ذهنه خاطر! لماذا لا يسلي نفسه حتى مطلع الفجر، فيلقي عليها ذلك السؤال الذي شغله ذهنه كثيرا؟ سؤال اعتزم طرحه عشرات المرات على كل فتاة من هاتيك المحترفات اللاتي اعتاد أن يأتي بهن لبيته في عطلة نهاية الأسبوع من حين لآخر؟ لكن وقاحة الضيفات "فوق العادة" كانت تثنيه عن عزمه كل مرة، أضف إلى ذلك أن هذا الصنف من النساء كان كالجراج العمومي، يرتاده هو كما يرتاده بعض أصدقائه وزملائه في عمله الرسمي المرموق، وآخر ما يرغب فيه أن يجد ساقطة تسخر منه ومن سؤاله في حديثها مع واحد منهم، فيمضي هذا ويقول للجميع أن "أكرم" يكتري البغايا ليحاورهن، لأنه لا يجيد غير الأحاديث الفارغة في الفراش، وتلك تهمة فظيعة وقابلة للانتشار بسرعة الضوء في مجتمع ذكوري يقرن الرجولة بالفحولة، وينظر للرجل الحصور نظرة احتقار بينما يدعو للرجل الفاجر بالهداية!

لكنه يرى في هذه الراقدة بجواره اختلافاً يجعله يأنس إليها نسبياً، لعله شيء من الهدوء وعدم التكلف في أدائها، أو طيف من العذوبة في صوتها وإن حاولت أن تغطي عذوبته بنبرة وقاحة غير أصيلة، أو غير متأصلة، ثم إنها مازالت في عمر الزهور، بالكاد تجاوزت العشرين، وجسدها ليس مستهلكا مما يشي بأنها لم تعرض في سوق النخاسة منذ زمن بعيد، أي أنها "بسَلَبَة السَحَّاب" كما يقول المثل الشائع في ذلك الوسط، كناية عن حداثة عهدها بالحبائل التي نسجها حولها القواد الذي شدها لهذا المستنقع، شجعه هذا الاستنتاج فقرر أن يسألها سؤاله المؤرق التفت إليها وأدارها بذراعه لتواجهه، ثم أراح رأسها على كتفه وأخذ يداعب خصلات شعرها الفاحم برفق، شعر جميل وهبته لها الطبيعة، ولولا أنه يميز سواد الشعر المصبوغ الضارب للزرقة ورونقه الذابل لظن أنه مصبوغ لعمق سواده، هي جميلة في مجملها، بل لعلها من أجمل من رأى من بنات "كارها"، دار هذا بخلده حين قبل رأسها بهدوء فنظرت إليه وابتسمت ببلاهة يخالطها العجب، فقد تعودت هذه الرقة من رفاق الليل قبل ممارسة اللعبة وليس بعدها، بل إنها تشعر بالواحد منهم وقد قضى منها وطره كأنه يود لو ألقي بها في أقرب صندوق قمامة، وتلك اللحظات التي تلي انطفاء الرغبة وتسبق فتح باب الشقة لتخرج هي الأكثر إيلاما وإهانة في

مهنتها، لحظات يشعرها فيها سلوك الزبائن أنها دنس وعار يجب دفنه سريعا كما تدفن القطط فضلاتها، لكنها على كل حال قد اعتادت مثل هذا السلوك، فصارت لا تعجب منه ولا تتألم، بل تعجب مما يخالفه من فعل أو قول، لكنه قطع دهشتها وأفكارها حين رفع رأسها بكفه لينظر في عينيها وسألها لو كانت ترحب بالدردشة معه قليلا، فأجابته بأن الدردشة لعبتها المفضلة وابتسمت ابتسامة حاولت أن تحملها من الفحش ما لا تحتمل، ومالا يحتاجه الموقف، فتيقن من استنتاجه، هي جديدة في الكار ولا ريب، لهذا تضع متاريسا من الوقاحة والمجون المصطنع كخطوط دفاع، قال لها ممازحاً:

– عموما .. الدردشة أريح من غيرها

ردت بلهجة حادة كأنها تدافع عن كفاءتها المهنية فقالت:

– ومين قال إني تعبانة؟ ده احنا لسة ف أول الليل

لابد أن سبب ردها المندفع والمتحمس هو قلقها على أتعابها، فبعض "الأكلتية" من "راغبي المتعة الحرام" كما تسميهم صفحة الحوادث يلوحون بعدم رضاهم عن الأداء إذا أرادوا تخفيض الأجر أو الامتناع عن الدفع، فطن "أكرم" لهذا فمد يده لبنطلونه الرمادي الملقى على ظهر كرسي التسريحة وسحب حافظة نقوده من جيبه الخلفي، ثم عد خمسة ورقات من فئة

المائة جنية ومد يده بالنقود فأخذتها "اعتماد" وقبضت عليها بيسراها وهي تكتم راحة وسعادة كادت تطفو على وجهها، تكتمها حتى لا تفقد "حقها" الذي حازته، فلو ظهرت عليها إمارات الفرح قد يفهم الزبون أنها لا تساوي ما دفع، ولم تعتد أن تحصل عليه، فيحدث ما لا يحمد عقباه ويضيع منها بعض أجرها أو كله .

أخذت سيجارة ثانية فأشعلتها من الأولى، ثم سألته عن نوع الدردشة الذي يفضله، وهل يحب أن تحكي له حكايات "قبيحة"؟ فأجابها ضاحكا أن الأمر بعيد عن هذا كل البعد، وغاية الأمر أنه سؤال يريد طرحه عليها بخصوص مهنتها تلك، فهو يراها مهنة مرهقة جدا، تستنزف ممن تحترفها جسدها وأعصابها وشبابها بسرعة فائقة، فالعمر المهني للعاهرة لا يتجاوز خمسة عشر عاما بفرض أنها بدأت حياتها "العملية" مبكراً، فبعد انتصاف العقد الرابع يقل زبائنها وتقل قيمة أتعابها، طريق البغاء ليس طريقا للربح السهل كما يحسب البعض، بل لعله من أشق الطرق فضلا عن كونه أقذرها، لهذا تساءل دوما عما يدفعها أو أي فتاة مثلها لخوض بحره الوخيم؟ ضحكت هي بما يشبه الاستخفاف والسئم معا، فكم من زبون سألها نفس السؤال، سحقا لكم جميعا، ألا يكفيكم أن يقدم لكم لحم الغزالة مشويا

في طبق، فتسألوها لماذا سقطت في براثن الصياد؟ لو لم تكن الغزالة غبية سهلة الوقوع في الفخاخ لتضورتم جوعا أيها الحمقى! هكذا فكرت صامتة قبل أن تنفث دخان سيجارتها بغيظ طفيف وهي تجيب:

- عاوزني أحكيلك عن المأساة الفظيعة اللي رمتني في "طريق الرذيلة"؟ والاسطوانة المشروخة بتاعة أمي كانت مشلولة وأبويا مات قبل ماتولد وأخويا كان بيعيط من الجوع؟ يعني .. منها تسالي وقت ومنها تعملك "دماغ حزن" مع الفودكا؟ فيه ناس مرتاحة كتير بتحب تعيط ع الغلابة، كأنهم بشوية دموع بيقوا عملوا اللي عليهم .. أجابها بأنه لا يريد فيلما كلاسيكيا، وإنما يريد الحقيقة المحضة كما هي، أجابته بغير افتعال لتقول بأن في الأمر مأساة بالفعل، لكنها ليست حادة، بل مزمنة كالعيب الخلقي، يولد به من كان مثلها ويعيش به وغالبا ما يموت به، الفقر .. الفقر هو مأساتها وعيبها الخلقي، نظرت في عينيه بعمق ربما لأول مرة منذ التقيا حين هز رأسه مصدقا على حديثها، ثم قالت أن عليه ألا يهز رأسه كأنه يعرف الفقر، فالفقر كمسرح العرائس، يختلف شعور من يشاهده من المتفرجين تمام الاختلاف عن شعور العرائس "المشبوحة" بأسلاك تدمي أيديها وأقدامها، وقد عاشت هي

مشبوحة بالأسلاك في صندوق الفقر الخانق منذ وعت على الدنيا، لم تكن يتيمة، بل كان والدها رجلا طويلا عريضا موفور الصحة، كان شقيا وعاطلا في شبابه فسجن لأكثر من خمس سنوات، وحين خرج من السجن رأته لأول مرة وكانت قد تجاوزت الرابعة من عمرها، واشترى لها يومها قطعة من العسلية في لفتة حنان لم تتكرر منه كثيرا فيما بعد، المهم أنه حاول أن يتوب عن الشقاوة، واكتراه أحد ضباط المباحث ليعمل سائقا على ميكروباص يملكه لنقل الركاب بين محطة مصر والورديان وبالعكس، لكن الشقاوة المطلوبة لهذا العمل ولتحقيق الهيبة اللازمة "في الموقف" لم تكن داعمة لفكرة التوبة بشكل كبير، أما أمها فلم تكن مشلولة ولا عاجزة، بل كانت امرأة مليحة الوجه طويلة القامة ونحيفة كسيخ من حديد التسليح، نحافة الفقر والشقاء لا نحافة الرشاقة، فقد كان نصيبا وافرا من دخل أبيها من الميكروباص ينفق على المقهى وعلى مزاجه، وكان على أمها أن تعمل لتطعم أبناءها، فاشتغلت أول الأمر بدلالة السمك، تدور على البيوت بمشنة السمك تبيع بضاعتها لمن لا تريد من ربات البيوت أن تكلف نفسها عناء الذهاب لحلقة السمك، لكن أبيها لم يترك الأم الكادحة لحالها، بل كان يسطو ليس على ربحها وحسب، ولكن على رأسمالها في كثير من الأحيان ليكمل ثمن الكيف، فاضطرت أمها للعمل

في البيوت سرا دون أن يعرف بذلك أحد من أهل الحارة، تلك الحارة الضيقة متداعية البيوت والتي كان نصف نسائها يخدمن في أحياء الإسكندرية الراقية، والكل يعرف ولكن دون تصريح، لأننا مجتمع يحتقر العمل الشريف لو كان بسيطا ولو قال غير ذلك في كل مناسبة وبغير مناسبة، ويحترم الإجرام لو كان وجيها لامع المظهر ولو أعلن غير هذا! من كد هذه الأم عاشت هي وإخوتها، فلم يتضوروا جوعا و لم يتعروا، كان كد أمهم طوال اليوم يكفي لسد رمقهم بالخشن من الطعام، وكساء عريهم بالرث من الثياب، ولتعليمهم على قدر "ما قسم" في مدارس الإلزامي، هكذا حكت له "اعتماد" قبل أن تتوقف قليلا وتطلب سيجارة ثالثة في أقل من ثلث ساعة، ناولها السيجارة وأشعلها لها ثم صب كأسين من الفودكا حتى تعينها الخمر على الاسترسال في الحديث وتقلل من قدرتها على التلفيق والاختلاق لو حلا لها ذلك، فقد علمته الدنيا أن المهمشين يجدون متعة كبيرة في الكذب على من ينتمون للطبقة الوسطى فصاعدا، كأنهم ينتقمون من المجتمع بخداع طبقاته المرفهة من وجهة نظرهم .

استأنفت بعد الرشفة الأولى من كأس الفودكا فحدثته عن طفولتها التي لم تستوعب خلالها معنى الفقر تماما برغم الرغبات الطفولية الكثيرة التي كانت عادة ما تنتهي بشخطة من أمها أو

"زغدة" من أبيها، لكن الحياة كانت تمضي يوما بيوم، و لم تبدأ مشكلتها مع الفقر إلا مع فورة الأنثى داخلها في عمر البلوغ، حين خرطها "خراط البنات"، وخراط البنات هو ذلك الفنان التشكيلي المبدع الرائع في بعض لوحاته، والفاشل جدا في بعضها الآخر، والمقبول في مجمل أعماله، وكانت هي من النوع الأول بديع التكوين، إذ كان عودها فائرا، أخبرته أنها كانت يومئذ أجمل كثيرا منها اليوم، فالأيدي الجائعة فعلت بها خلال عامين ما لم يخطر لها ببال، وأذبلت قدرا وافرا من جمالها، المهم أنها كانت في مراهقتها تلك مختالة بجمالها كأي مراهقة من طبقتها الكادحة، فلو كان لفتيات الطبقات المتوسطة والعليا ما يفخرن به من تفوق دراسي أو فني أو رياضي يحققن فيه ذاتهن، ففتيات قاع المجتمع اللاتي لم يهبهن القدر نصيبا من الثراء يتيح لهن كل هذا ليس أمامهن سوى طريقة واحدة لتحقيق الذات، إذ يرثن عن أمهاتهن نزعة فطرية للتفاخر بهبة الطبيعة، الأنوثة، فبها يشعرن بتحقيق الذات، وبها تحدد قيمتهن في محيطهن الاجتماعي البائس، وهذا في حد ذاته لا يعني فسادا لبنات تلك الطبقة وسيداتها، فكون زوجة حارس العقار تسير متهادية في جلبابها القطني الملتصق، وتلاطف المكوجي وبائع السوبر ماركت وحارس العمارة المقابلة فهذا لا يعني بالضرورة أنها امرأة هلوك، لكنها امرأة عاطلة إلا من أنوثتها، وتحقيق ذاتها لا يتأتى إلا من خلال شعورها بعمق تأثيرها الأنثوي فيمن حولها من رجال، ومثلها غالبية المهمشات الجاهلات، خاصة من

تنتزع منهن من بيئتها في القرية لتواجه بيئة جديدة في المدينة، لتقارن نفسها صباح مساء بنساء المدينة المتعلمات الجميلات المتأنقات وتشعر بدونيتها، فلا يخفف من شعورها إلا صدى أنوثتها في عيون من حولها، ولم تكن "اعتماد" استثناء من هذا، كانت مختالة بجمالها وفوران عودها، وكانت عيون الرجال والشباب تتابعها بنظرات تلتصق بها التصاقا، فتزيد من خيلائها، حتى أصحاب أبيها لم تعف عيونهم عنها، وكان طبيعيا والحال كذلك أن تواجه أول مشاكلها مع الفقر في تلك المرحلة ممثلة في الملابس، وهو أمر قد يراه الرجل تافها، لأنه ببساطة ليس مراهقة فقيرة فائرة الجسد! فالمراهقة المهمشة تريد الإعلان عن جمالها بالثوب الجديد والحذاء اللامع وقدر وافر من عطر رخيص، تماما كما تعلن الزهور عن جمالها باللون والشذى، ويعذبها عجزها عن هذا الإعلان عن مفاتنها بسبب الفقر اللعين، فتتحول تفاصيل كثيرة من تفاصيل حياتها إلى مصدر ألم وكآبة، إذ يصبح مشد الصدر الممزق الموصول بشريط مطاطي عذابا مستمرا، وتصبح الجيبة السوداء حائلة اللون بفعل الشمس عارا لا يطاق، وفي المقابل يتحول جورب الفوال الأسود والجينز البرمودة الضيق إلى أماني من الجنة! لكن العين بصيرة ترى معروضات البوتيكات التي انتشرت حتى في الأحياء الشعبية، واليد قصيرة لا تطول ولو زوجين من جوارب، لهذا فكرت في العمل كغيرها من بنات طبقتها، أي عمل مما يتاح لفتاة مثلها في مدينتها الساحلية، نادلة في مقهى

على البحر، أو بائعة في بوتيك من بوتيكات شارع "صفية"، أو ربما مضيفة في السوبرجيت، لكنها كانت حازمة في أنها لن تعمل كمندوبة مبيعات "سريحة" لأنها لا تنوي إهلاك ما تشتريه من ملابس وأحذية في اللف طوال النهار والليل، ولن تحتمل التحرش من كل زبون تعترض طريقه كما يحدث لجارتها كلما وقفت في ميدان محطة الرمل تروج ماكينات الحلاقة والجوارب ورابطات العنق الرجالي الرخيصة, وبدأت رحلتها مع الحياة العملية، وحكت له وهي تشرب ثمالة كأسها كيف أخذتها جارة في نفس عمرها للعمل في مطبخ ذلك البار الشهير في لوران، وكيف لاقاها كبير الطهاة هناك، فهي تذكر ذلك اليوم كأنه أمس القريب، وقفت أمام ذلك الرجل مهزوم الملامح مفرط السمنة، فنظر نحوها بود قليل وهو يفرزها من شعرها لأخمص قدميها قبل أن يقول وكرشه يهتز أمامه مع كل كلمة تخرج من حلقومه:

– المهم تعمري في المطبخ، وماتطلعيش منه قوام، ياما بنات جم وكانوا ف جرة وبعدين طلعوا لبرة، علشان كده مابقيتش أشغل غير صبيان، حاكم مطبخنا ده هو الجرة، والباب اللي قدامك ده هو اللي بيودي على برة، بس عن طريق الدور التالت، نهايته .. نجربك ونشوف هكذا علق ثم أمرها أن تنظف أرضية الثلاجة وتمسح تحت طاولة التقطيع الرخامية، لم تفهم ما قصده بالخروج لبرة والدور الثالث، لكنها همت في عملها،

بحثت عن الثلاجة فلم تجد شيئا يشبه ما تعرفه من ثلاجات، حتى أشاروا لها نحو غرفة ذات باب معدني في نهاية الممر المؤدي للمطبخ، لدهشتها كانت الغرفة هي ثلاجة المطبخ ذاتها، ارتعدت من البرد حين دخلتها، وفيها رأت قطع اللحم الضخمة التي لم تتخيل وجودها إلا في جزارة معلقة على خطاطيف، حتى جزار الحارة التي تسكنها لم يكن في دكانه كثير من اللحم، فالاسم جزار والفعل تاجر لحمة رأس وكوارع، يضاف إليها لحم الكندوز والماعز ليلة الجمعة، لهذا كان أول ما فكرت فيه في تلك اللحظة هو الاختلاس، وبرق بعقلها سؤال ملح: هل سيعرف أحد لو قطعت قطعة لحم من هنا أو هناك ودستها في جيب المريلة الوردية ذات الجيوب البيضاء التي أعطوها لها؟

(٢)

ثقافة الاختلاس

استأذنت للحظات حتى تغتسل "علشان تفوق وتكمل الحدوتة" على حد تعبيرها، وشرد هو بخياله في تفكيرها في اختلاس قطعة لحم من ثلاجة المطعم، والذي كان أول ما فعلته في عملها الجديد، مضى يفكر في سيطرة عقلية الاختلاس على المجتمع حوله، صبي المقهى الذي يجلس عليه مع أصدقائه يختلس "المونة" من الشاي والسكر والبن، يضع حصيلة اختلاسه في قراطيس صغيرة يوزعها على جيوبه في نهاية اليوم حتى لا يلاحظها صاحب المقهى، وصاحب المقهى بدوره يغش البن بحبوب الفول السوداني المحترقة بعد طحنها، وجاره موظف القطاع العام الذي أحيل إلى المعاش المبكر، والذي يركب الأتوبيس من ميدان "سعد زغلول" حتى حليم يوميا في موعد ذهاب الموظفين، أو بالأحرى الموظفات، ثم يجلس على المقهى حتى موعد عودتهن، ليختار من بينهن كل يوم مؤخرة عامرة يختلس منها لحظات الدفأ اللين في الذهاب والإياب، والفكهاني على الجهة الأخرى من شريط الترام أمام منزله، يزن له التين البرشومي ثم يضيف تينتين "إكرامية" وعندما يشرع بإغلاق الكيس يسقط ما لا يقل عن خمس أو ست تينات بخفة يده،

وسائق التاكسي الذي يوصله لعمله تصطدم يده بفخذ الزبونة الراكبة بجواره عفوا مع كل نقلة بالفتيس، فلو نزلت وركب رجل مكانها تراه وكأن صالون الفيات ١٢٤ موديل ١٩٧٣ قد اتسع فجأة فلا تصطدم يده بالراكب أبداً، وزوجة صديقه التي كانت تختلس من مصروف البيت كلما تيسر لتدخر في دفتر البريد كما أوصتها أمها لأن الرجال لا أمان لهم، حتى اكتشفها صديقه فاستقرت بجوار أمها، والتي قالت لها حين عادت إليها مطلقة أن ظنها صدق فيه ولن ينفعها غير ما اختلسته، كأن الاختلاس لم يكن في حد ذاته سبب طلاقها! وصديقه هذا لم يكن أحسن حالا من طليقته، فكم حكى له ولشلة المقهى عن اختلاسه النظر إلى نهدي الخادمة عندما تنحني أمامه لتقدم له قهوة السابعة مساء، وكيف حاول مرة أن يختلس ما هو أكثر من النظر، فأطاحت البنت الفتية ذات التسعة عشر عاماً بيده بضربة قوية، أعقبتها "شدّة" سكندرية عميقة من حلقها وهي تحذره لو طالت يده ثانية، فهي حرة بنت حرة، وخطيبها لو عرف سوف يقطع يد "البعيد" التي تمتد إليها، مرر صديقه الموقف ثم عرف كيف يلين دماغها برعايته لخطيبها – صاحب الدماء الحارة – في عمل رشحه له، وبهذا نال منها ما هو أكثر من اللمس!

هكذا يختلس الكل اختلاسات ظاهرها الخسة وباطنها البؤس، فكلهم يختلس لأنه محبط مقهور، ويزيد اختلاسه كلما زاد إحباطه وزاد اعتقاده بظلم الحياة له، لأنه بذلك يجد شماعة يعلق عليها ضعفه، فصبي المقهى يرى أنه "شايل القهوة على راسه" ويتقاضى مع ذلك ثمانية جنيهات في اليوم والليلة فقط لا غير! ويقول أن "الأفندي" الذي ورث القهوة عن والده "عويل" ولو ترك له المقهى لخربت فوق رأسه، وصاحب المقهى الذي يتهمه الصبي بأنه عويل يدعي بدوره أن الزبائن لا تستطعم القهوة إلا لو أضاف إليها حبوب الفول السوداني المحمص لأنهم تعودوا طعمها هكذا في كل مكان، ، أما جاره مدير الإدارة بالقطاع العام سابقاً، والذي كان مشهودا له بالنزاهة والكفاءة في عمله، فقد أوقفت إدارة شركته ستة خطوط إنتاج من أصل ثمانية خطوط عن العمل، فخسرت بعد أن كانت تحقق أرباحاً بالملايين لعشرات السنين، وبالطبع كان الهدف هو بيعها بالبخس مادامت خاسرة، كان الرجل يقول لصحبة المقهى الذي "تقاعد" عليه مبكرا:

– باعوها بأقل من ثمن أرض المصنع، البيع .. وما أدراك ما البيع وبركات البيع .. على الكبار طبعا.. أما هو فكان مصيره معاش مبكر ومع السلامة، ليعاني وحدته بعد أن ماتت زوجته

ورفيقة عمره ولم تترك له بنت ولا ولد، يتسلى باختلاس متعة رخيصة في الأتوبيس من موظفات وعاملات أذبل البؤس وجوههن وصبغها بصبغته الصفراء الكالحة، ولو حدث أن وجدت إحدى ضحاياه الجرأة في نفسها فاحتجت على تحككه الغير بريء، سوف تسمعه يقول لمن يمسك بخناقه من ركاب الأتوبيس:

- الأتوبيس ضيق! وأنا أعمل إيه؟ خلوا الحكومة تجيب أتوبيسات بدورين، وبعدين يا خلق هو أنا كلت منها حتة؟ ماهي قدامكم أهي سليمة، بكرة يبيعوا الأتوبيسات كمان وتتقلب مكيفة مايركبهاش غير البهوات والحرامية علشان ترتاحوا.. أما الفكهاني الصعيدي مختلس التين البرشومي فمنطقه أبسط، تسمعه في جلسات الصفاء على المقهى يقول لخاصته:

- لما جيت من بلدنا كنت أبيض من "مترد" اللبن الحليب، خدت فوق راسي لمن قلت "جاي"، لكن النهاردة خلاص، ماعادش حد من "قفواتك" يا اسكندرية ياخد مني حق ولا باطل.. أما صاحبنا سائق التاكسي فأغلب من الغلب ذاته، مصاب بعنة مزمنة لم تجد معها حبوب زرقاء ولا صفراء، و"الولية" — كما يسمي زوجته – قليلة الأصل و"كاسرة

نفسه" في الحارة كلها، تحدث من هب ودب بحاله، فيشعر بنظرات "نسوان" الحارة تكويه وهو خارج صباح الجمعة، بينما ترش كل منهن الماء والصابون من "طشت" الحموم أمام بيتها إعلانا عن ليلتها الصاخبة، فأغلب بيوت الحارة لا تنعم بغير حنفية واحدة في الدور الأرضي لكل بيت، ومازال الطشت والكوز هما وسيلة الحموم بها في الألفية الثالثة، يتذكر حين ينظرن نحوه عبارة زوجته "كوثر" حين قالت "حسرة علية"، فكأن تلك العبارة من كلمتين سيخ حديد يغرس في عموده الفقري، قال له أصدقاؤه أن هذا يحدث بسبب الملل من أم العيال أحيانا، فصار يتحكك بالزبونات وهو ينقل الفتيس "علشان يسخن"، "حاكم المواضيع دي تحب التسخين برة الجراج عشان الماتور يشد معاك في الجراج"، هكذا نصحه العالمون ببواطن الأمور من خلان المقهى، غير واعين بدور مرض السكر اللعين الذي أفنى أعصابه وعروقه في غفلة من الزمن، وفي ظل اختفاء الإنسولين المدعوم "أبو سبعين صاغ" من الصيدليات مع لبن الأطفال المدعوم!

أما زوجة صديقه المختلسة فما زالت تذكر ذل أمها حين طردت من بيتها الذي ورثته وباعه أبوها لنفسه بتوكيل منها، بعد أن فرض عليها "الذكر" هذا التوكيل بحجة "ما عندناش حريم يروحوا مصالح ويمضوا ورق، هي مرة للشهر العقاري تعملي التوكيل وخلاص"، وبعد أن فعل أبوها فعلته الشنعاء

جاء بأخته المطلقة لتعيش في بيت أمها المسلوب هي وأولادها، أما صديقه المتحرش بالخادمة، فكانت أولى تجاربه مع مربيته الرقيعة في مراهقته، والتي كانت تستغل خلوتها مع الصبي الغرير في الثانية عشرة أفحش استغلال انتقاما من قسوة أمه، ومرت السنوات وصار رجلا وتزوج، لكنه مازال يحن لهذا اللون من النساء، خاصة و"أم العيال" كانت قبل أن يطلقها "ملهية عنه بعيالها" كما يقول كل الرجال!

الكل يجد لنفسه المبرر دائماً حتى يختلس المال أو المتعة، ولو أوتي أحدهم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولو كان للرجل في الجنة "أربعين" زوجة لنظر إلى واحدة من الأربعين اللائي لجاره، إذ لا يملأ عين ابن آدم غير التراب.

(٣)
حدث في الدور الثالث

أفاق من خواطره على صوت خطواتها، أو بالأصح صوت "شبشب" الحمام الذي وضعت قدميها فيه حتى النصف فقط على عادة النساء في ثقافتنا الشعبية، حيث قرقعة "الشبشب" على البلاط تعد من علامات الأنوثة والدلال، دخلت الحجرة وهي تلف جسدها ببشكير الحمام الخاص به، تغطي به المسافة بين نهديها وركبتيها، ونظرت في وجهه فور دخولها لترى رد فعل منظرها المثير عليه وهي طازجة بعد اغتسالها والماء يتقاطر من أطراف شعرها كأنها فاكهة يانعة، فلم تجد أي أثر للإثارة على وجهه، فأدركت أن الرجل ليس من النوع الذي يهوى النساء كمرض مزمن يسري منه مسرى الدم، بل هو من صنف يستجيب فقط لداعي الغريزة حين يلح عليه، وقد علمتها خبرتها في سوق المتعة كيف تفرق بين أصناف الرجال من مجرد نظراتهم للحمها العاري! تقدمت فجلست بجواره وأشعلت سيجارتها وهي تقول:

- كده بقى فُقنا والمزاج بقى عنب

- نعيما .. قولي لي بقى عملتِ إيه في تلاجة اللحمة؟

– أول يوم خفت وماعملتش حاجة، لكن يوم في يوم خدت ع الجو وقلبي جمد، بس ماخدتش حاجة من التلاجة، بقيت أختصر من اللحمة المستوية، كل يوم العصر أحط ورقة جورنان في درج تحت رخامة التقطيع، أطباق الأوردوفر اللي بتترص عليها كانت عمرانة ومايبانش فيها لو شِلت حتة لحمة ولا صابعين كفتة من كل سرفيس

– وآخر اليوم تلفي الجرنان وتاخديه البيت

– عمره ما وصل البيت وشرفك، كانت كل حاجة بتخلص نقنقة في الترام اللي باركبه من لوران للرمل وبعديه الأتوبيس من الرمل للورديان، بس خيرات الجورنان المسروقة مادامتش كتير، الحجر الداير لابد من لطّه .. حكت له كيف اكتشف المتر "بهاء" المسئول عن البار والتابع الشخصي لصاحب المحل أن الأوردوفر يقدم ناقصا، فقام بكبسة على المطبخ واكتشف الجرنال وفوقه قطع اللحم وشرائح صدور الدجاج فأبلغ صاحب البار "مراد بيه" كما دعته، وقد رأته يومها للمرة الأولى، وتقسم أنها مهما رأت من رجال أو مرت بتجارب فلن تنساه ولن تنسى ما حدث لها في ذلك اليوم، فقد اقتحم "مراد" المطبخ وخلفه المتر "بهاء"، كان "مراد" في الخمسينات من عمره وشعره مصبوغ بلون بني داكن لا يناسب

لون بشرته الأبيض المشرب بحمرة، بدين يفوق وزنه المائة وخمسين كيلوجراما، ويرتدي قميصا مشجرا مفتوحا حتى منتصف صدره فوق بنطلون أبيض وحذاء لامع من نفس لون البنطلون، وتظهر من فتحة القميص سلسلة سميكة من الذهب تباري في لمعانها الخواتم في أصابعه والسوار الذهبي العريض حول معصمه، وكانت هي غريرة ساذجة في ذلك اليوم بعد، ففضحتها سذاجتها البادية على وجهها، إذ وجه "مراد" سؤاله للمتر قائلا:

– امتى لاحظت إن الأطباق بتنزل ناقصة للزباين؟

– من تلات ليالي يا أفندم

هكذا أجابه "بهاء"، والزمن في البارات يعبر عنه بالليالي وليس الأيام، فالليل لأهل المواخير معاش والنهار ثبات على عكس بقية خلق الله، وهنا توجه "مراد" بنظره للطباخ سائلا في حدة:

– مين جديد هنا؟

فرد الشيف مضطرباً

– بنت وولد يا باشا

ثم نادى عليها وعلى الغلام الذي التحق بالمطبخ قبلها بأيام، فدعاهما للوقوف بين يدي البيه الذي كان يقف منتفخا كأنه إله في كونه الخاص، نظر لها وللغلام ولم تمض ثانية حتى قال:

- دي مش عملة ولد، "اللوح" ده لو سرق هيسرق حاجة كبيرة ويهرب، دماغ "الخنصرة" دي دماغ حريمي.

لم يكد ينتهي من قوله حتى كان الارتباك يعصف بها ويطفو على صفحة وجهها كأنها تقول خذوني، اسودت الدنيا في عينيها وكاد يغشى عليها حين سألها وهو يطعنها بعينيه طعنا:

- اسمك إيه يا بت؟

رد الشيف قائلاً:

- خدامتك "اعتماد" يا باشا

- ماسألتكش إنت يا "رِمّة"

هكذا دعا "مراد" الشيف الذي كان يعامل كسيد مهاب على مستوى المطبخ، ثم تحول نحوها بجسده السمين المرتج، فلاحظته ينظر لنهديها وساقيها كأنه ينزع عنها ملابسها وهي ترتعد كفرخ سقط في الماء، ثم التفت لبهاء الذي كان كاتما لأسراره فضلا عن كونه المتر الكبير في البار، وقال وقد بدا عليه اهتمام تاجر الماشية حين يرى بهيمة عفية:

- بنت ال"...." دي تحصلني ع التالت

عند هذا الجزء من حكايتها هز "أكرم" رأسه وقال:

- وطبعاً اللي جرى في الدور التالت مفهوم

ضحكت "اعتماد" بشقاوة وبغير رقاعة هذه المرة، وكأن حكايتها أعادتها لزمن صباها الغرير، وقالت:

- طيب حذّر؟

- اغتصاب أو تحرش تحت التهديد أو غواية بالفلوس .. هيكون إيه غير كده؟

- هو حصل تحرش وغواية .. بس مش من "مراد" .. من المدام .. مراته

نظر "أكرم" في وجهها بدهشة بسيطة، فلم يعد هناك بعد هذا العمر ما يدهشه بشدة، فاستأنفت تشرح بقولها:

- قُصْرُ الكلام .. مراته مدام "مارتينا" خواجاية يونانية عجوزة من بتوع زمان، هي صاحبة البار والعز اللي هو عايش فيه، كانت شاذة من يومها وتحب البنات الورور، وكان "مراد" الأول شغال معاها مكان "بهاء"، وشغال لها كمان شماشرجي لمزاجها زي "بهاء" ما بيشتغله دلوقت برضو، يصطاد لها البنات ويجيبهم لحد عندها جاهزين، وفضل على دي الحال لحد ما

احتاجت تاخد الجنسية فاتجوزته، ده اللي حكهولي "بهاء" لما طلعت معاه الدور التالت قصت عليه كيف شرح لها "بهاء" مهمتها بوجه مكشوف كعادة القوادين حين صعدت معه، فالمطلوب منها أن تقضي اليوم مع المدام لتفعل بها ما تشاء بعد أن تتم تهيئتها لذلك، وحكت له كيف صعقت في تلك اللحظة وضربت على صدرها مفزوعة وهي تقول:

- يا فضيحتي ، كل ده عشان حتتين لحمة يا ناس!

لكن "بهاء" حسم لها القضية بكلمتين، "مارتينا" امرأة عجوز وما ستفعله بها أهون ألف مرة مما ستلقاه من أمناء الشرطة في القسم لو أبلغ عنها "مراد" بك، فسوف تقضي ليلتها مستباحة العرض حتى تعرض على النيابة في الصباح! ومن الجائز جدا عندها أن تفقد عذريتها، طفلة كبيرة الجسد غريرة العقل كانت في ذلك الوقت، كانت ترى الرجال "العتاولة" من أبناء حارتها يعودون من القسم متورمي الأوجه ونازفي الأنوف، وتسمع عن عرض المباحث الذي عادة ما يكون علقة ساخنة يتلقاها المشبوه أو المسجل خطر أمام ضابط المباحث على أيدي المخبرين، وهؤلاء رجال أقوياء، وليس لهم عرض ينتهك (هكذا كانت تظن وقتها)، ولهذا رضخت الفتاة المذعورة وقدموها لمارتينا، تلك العجوز النحيفة بارزة الملامح في الستين من

عمرها، وكان رضوخها لشذوذ "مارتينا" هو أول خطواتها في طريق الهوان وذل الرقيق الأبيض، كادت تتقيأ ألف مرة وهي في فراش مارتينا، حتى استقرت معدتها في منزلة بين الانقباض والانبساط، وبكت وصرخت فشعرت أن دموعها تزيد من نشوة العجوز الشاذة، وحين أشارت لها العجوز بيدها لتسمح لها بالانصراف سحبت ذلها باحثة عن الحمام، وحين دخلته ووقعت عيناها على المرحاض اندفع الماء من معدتها، فلم تكن قد طعمت شيئا غيره منذ الصباح، فحتى اللحم الذي قايضوها عليه بلحمها لم تحظ به، ارتدت ملابسها بغير اغتسال، كأنها أرادت أن تتعايش مع شعورها بالدنس، وحين خرجت من الحمام كان "مراد" في الطرقة ينظر نحوها، وقفت أمامه ذليلة تنتظر أوامره، وحسبت أنه سيطلبها لنفسه بعد زوجته، لكنه رأى أن يختم يومها بعد طول "البهدلة" مع العجوز الشمطاء بلطمة قوية وهو يقول:

- لو اتكررت تاني يا بنت ال"....." هقطّع من لحمك وأرمي للكلاب كأن كلبة شمطاء هي زوجته لم تلتهم لحمها بالفعل منذ برهة قصيرة! وحين فتحت باب الشقة الخاصة بهم في الدور الثالث فوق المطعم وجدت "بهاء" في انتظارها، يسألها لو كانوا أمروها بالصعود ثانية، ولما أجابته بالنفي علق قائلا

وهو يمصمص شفتيه ويحرك كفيه بإشارة للخيبة تستخدمها السوقة من النساء عادة:

– يا خيبتك القوية، تبقى المدام مش راضية عن الشغل، لو كنت عجبتيها كنت من بكرة هتستلمي نوباتشية معانا في البار، وآخر اليوم تاخدي نصيبك من "التيبس" وتتبشبشي!

زادت كلماته تلك من شعورها الخانق بالهوان، فقد التهمت العجوز لحمها مقابل قطعتي لحم ومع ذلك لم ترض الشمطاء العجفاء عنها، بكت ليلتها كثيرا بعد عودتها لمنزلها، لكنها لم تبك بعدها أبدا، حدث لها في سوق البغاء ما هو أفظع ألف مرة، لكنها لم تبك، فكأنها استنزفت ماء عينيها في ليلة واحدة هي تلك الليلة، لتواجه دنياها بعيون كالحة النظرات .. أكثر جفافا .. وجفاء

(٤)

الحب والجواري

– هو ده اللي غير ميولك الجنسية وخلاكِ تفضلي البنات على الرجالة؟ كأنك بتلعبي دور "مارتينا" معاهم؟

صعقها سؤاله، فثبتت ملامحها للحظة وكأنها تمثال شمع متقن الصنع، ثم نظرت في وجهه بملامح فارغة ثم أطرقت، مررت يدها في شعرها بعصبية وهي تدلك رأسها بينما وجهها تنتابه مختلف الانفعالات، نظرت إليه ثانية وبحدة هذه المرة وهي تقول:

– إنت مباحث ولا عراف يا سيدنا ولا إيه في ليلتي السودة دي؟ الموضوع ده مايعرفوش عني غير تلاتة، بنتين يحافظوا ع السر بروحهم و"منال" الكوافيرة، تبقى إنت عرفت إزاي؟

قال لها وهو يبتسم بهدوء أنه عرف من عينيها، فنظرات عينيها في الفراش كانت نظرات رجل .. أو امرأة تعودت القيام بدور رجل واستهواها هذا الدور، وهذا ما يسمونه بالشذوذ الإجتماعي أو المكتسب، عندئذ استرخت ملامحها ثم ضحكت برقاعة جعلتها الخمر طبيعية وقالت:

- خضتني يا معلم، على كده تبقى مصيبتي جَت لي في أكل عيشي زي ما بيقولوا، لو أي زبون شاف اللي شفته ده يبقى عليه العوض في السمعة.

طمأنها بأن خائنة الأعين تلك لا يراها من الناس إلا من احتفظ بجلاء بصره، وهؤلاء أقل من أن تخاف أثرهم على سمعتها، ثم سألها عن دور "منال" تلك، مغلبا أن يكون دورها قاصرا على تدبير عميلات السحاق من سيدات المجتمع الراقي، ممن لهن نفس الميول الشاذة أو ممن يرغبن في مجرد التغيير، وأنها لابد تتقاضى نسبة من الأتعاب مقابل الجلب، ولهذا فكل عميلة مرت بها تعرف السر، وموضوع حصره بين ثلاثة هذا مقولة لم تختبر، أجابته وهي تنظر نحوه بدهشة:

- يخرب بيتك .. كل ده شفته بالجلاء البصري بتاعك ده؟

- اعتبريني عراف

- اسم الله! وفين البنورة يا مولانا؟

أشار لرأسه وهو يقول:

- هنا أعظم بنورة في الدنيا، بس اللي يعرف يبص فيها

تأملت وجهه قليلا ثم سألته سؤالا مباشرا عن سبب لجوئه للمحترفات، فهو ليس شيخا فانيا يحتاج لمحترفة حتى "تشد

عصبه" على حد تعبيرها، ولا هو سائح عربي بشماغ جاء يصيف في الثغر ويريد امرأة سهلة وسريعة كالوجبات الأمريكية، ولا هو رجل أعمال أو سياسي ليس لديه الوقت ولا المشاعر ليكسب قلب امرأة، فيشتري بماله ما يعجز عن كسبه بقلبه، فهي تراه أمامها شابا فتيا في عنفوان الرجولة، فلو رغب عن الزواج لأي سبب فهناك من الهاويات في الشوارع والنوادي والمراكز التجارية من يفقن المحترفات عددا وجمالا، حتى أنهن يفسدن على بنات الكار سوق الهوى، نظر إليها مترددا وهو يتساءل لو كان من الحكمة مصارحة مثلها بمكنون صدره حتى وإن كان قد أنس إليها، لكنه سرعان ما زجر نفسه عن تلك النظرة المستعلية على الخاطئين، والتي طالما انتقدها في غيره، إذ ليس من حقه أن يصنفها ثم يقرر أن هذا "الصنف" لا يستحق الثقة فيه ومن ثم البوح له بالأسرار، فهي في كل حال لم ترتكب من الإثم أكثر مما ارتكب هو، بل لعل لها من العذر فيما اقترفت ما ليس له، لهذا أجاب بكلمة واحد قائلا:

- الصراحة

- طبعا عاوزة الصراحة أمال عاوزاك تشتغلني!

ضحك بشدة بتأثير بخار الخمر الذي صنع غلالة رقيقة على ذهنه وحواسه، ثم أوضح لها أنه لا يسألها لو كانت تريد أن

يجيبها بصراحة، وإنما الصراحة هي الجواب ذاته، فالصراحة والوضوح هما ما يغريانه بعلاقاته مع البغايا، تلك العلاقات الأشبه بالعمليات التجارية التي يراها الناس شاذة ويراها هو صريحة، علقت هي في بلاهة صبيانية قائلة:

- كلام المثقفين ده بيجيب لي إمساك

- شفت فيلم "أرض النفاق" بتاع "يوسف السباعي"؟

- "يوسف السباعي" ده كان مطرب أيام أفلام الأبيض وأسود مش كده؟

قالتها ببراءة طفلة جعلته يقهقه بضحكة صافية لنوبة الطفولة الساذجة التي انتابتها، ثم أجابها مبينا قصده بأن علاقات الرجال بالنساء في حياتنا صارت حافلة بالنفاق، فهناك رجل يقول لامرأة "أحبك" وهو لا يحبها حقيقة، لكنه يرى فيها أما مناسبة لأبناء يود أن ينجبهم، وآخر يخدع أخرى باسم الزواج رغم يقينه باستحالة زواجه منها، لكنه يروم منها أمرا، وهناك من يقول "أحبك" لامرأة يطمع في مالها أو حسبها، وهناك من يقول "أحبك" لامرأة لها ظروف خاصة لأنه يطمع في الزواج منها زواجا عرفيا وسريا ومجانيا وبدون أدنى التزامات! فقد تحول كثير من الرجال في زماننا لكائنات طفيلية وانتهازية

تستغل حالات العنوسة والطلاق المتفشية في المجتمع بشكل لا يمكن وصفه بغير النذالة

علقت على حديثه قائلة:

- رجالة عاوزين حبل المشنقة .. يا عيني علينا يا ولايا!

- الستات برضو كذابين، فيه اللي تقول لراجل إنها بتحبه والحقيقة إنها بتحب فيه العريس اللقطة اللي هي عاوزاه، بتحب المواصفات مش البني آدم، وفيه اللي تحب راجل بمنتهى الصدق .. وبعدين تتجوز راجل تاني، واللي تتكلم عن حقوق المرأة واحترام الرجل ليها في الشغل والنادي، ولو احترمها الراجل يبقى في نظرها ضعيف، لأن بقايا عصر الجواري جواها بتربط الرجولة بالقسوة والبطش

قالت وملامحها قد زادت غباءً وفراغاً بفعل الخمر وصعوبة حديثه:

- و"المُزَّة" بتاعتك كانت من أي نوع

- الأخير

- آه .. كانت بتحب تتضرب وتتشتم في أوضة النوم زي البت "منال"؟

ضحك وهو يقوم ليجلب ثلجا من فريزر الثلاجة، وحين عاد أجابها قائلا:

– مش بالظبط، كانت بتحب غرور الراجل وتكبره عليها وإهماله ليها، مشكلتي الوحيدة معاها إني عاملتها كأنها ملكة

سيطرت على قسماته مرارة من وقع الذكرى الثقيلة وهو يقول:

– انتهينا وكل واحد راح لحاله، ولقت هي اللي يرضي فيها خضوع الجارية وهواها، لكن أنا مالقيتش الملكة، ولا لقيت ست من غير قناع

– وانت فاكر لامؤاخذة يعني .. إن المومس مش لابسة ميت وِش فوق وشها؟

– لو قصدك الوشوش اللازمة لأكل عيشها .. زي إعجابها بوسامة كل زبون ولو كان شبه القرد وانبهارها برجولته، فدي مهارات أكل عيش، هدفها ارضاء العميل زي أي بيزنس، لكن العلاقة في النهاية صريحة وواضحة زي الشمس، هي فاهمة كويس إنه محتاج لها كجسد وبس، وهو عارف مهما عملت إنها مش عايزة منه غير أتعابها وبس، والود ودها يموت بعد

خمس دقايق علشان تروح تنام في بيتها وترتاح من القرف ولو ليلة

كانت تنظر له وقد ذابت من وجهها سنوات العهر فعادت فتاة بريئة وهي تقول:

– إنت غريب قوي يا "أكرم" بيه، والنعمة ما باقول كده علشان أرضيك، أنا بس ماعداش علي صنفك ده قبل كده على قد ما دقت على الراس طبول

– ليه؟

– ليه دي بقى عاوزة كاس تاني من "ميّتك" النضيفة دي علشان الكلام يحلو

(٥)

أكثر من وجه للحقيقة

- آدي الكاس يا ستي .. أنا كده شربت كتير وخايف تفوتني صلاة الجمعة بكرة

قالها "أكرم" وهو يبتسم فانفجرت "اعتماد" في ضحكة ساخرة جلجلت في هدأة الفجر قبل أن تقول:

- شي لله يا مولانا، ماتجيب لي ياخويا بشكير تاني أغطي بيه راسي علشان تبقى القعدة شرعي

- غريبة إني أصلي الجمعة؟

- مش شايفها غريبة وإنت ماسك في إيدك الطاهرة دي كاس المنكر .. وأنا بالمنظر المحترم ده .. وبعد ليلتنا دي؟

ابتسم مبينا أنه كان يمازحها، وإن كان عن نفسه لا يرى في الأمر غرابة، فقد عرف فتاة ليل كانت إذا أذن الفجر تهرع للحمام فتغتسل ثم تصلي، وتكتسي ملامحها بالجد وهي تتقاضى أجرها باقتضاب دون أن تنطق بكلمة، قبل أن تخرج للشارع مهرولة بسرعة من يفر من الموت، وعرف شبابا يدخنون الحشيش قبل ذهابهم إلى درس واحد من مشاهير

الدعاة البكائين، يحرصون على هذا حتى تكتمل السلطنة ويبكون بحرارة مع ترديد الدعاء خلفه في نهاية الدرس، وعرف أم تزين بنتها قبل أن تمضي بها لصلاة التراويح، لعلها تجذب انتباه واحدة من المترددات على المسجد يكون لها أخ أو ابن في سن الزواج، وعرف تاجرا يسافر للعمرة كل عام ويأكل في تجارته مال النبي لو استطاع، فالمتناقضون بيننا أكثر من المتسقين مع ذاتهم ألف مرة، لأننا نريد كل شيء، نريد أن ننعم بمتع الدنيا حلالا وحراما ثم تكون لنا الدار الآخرة كذلك، وليست هذه الازدواجية قاصرة على المصريين؟ فالعالم كله بألف ألف وجه، هناك من يحرم الصلاة في مسجد "المرسي أبي العباس" لأن به ضريحا ويستحل عرض خادمة فلبينية أو إندونيسية مسكينة أخرجها الفقر من بلادها مدعيا أنها ملك يمين! وهناك من يجاهد ضد السوفيت أو الأمريكان ثم يمضي لحقله ليروي زراعات الأفيون التي يكسب منها قوت عياله، وهناك بين جدران الفاتيكان من يرددون "طوبى للمساكين" وهم غارقون في الذهب، وسندات بنك الفاتيكان من أكثر وسائل غسيل الأموال شيوعا في العالم، وهنا قاطعته "اعتماد" سائلة لو كان الفاتيكان هذا هو مصمم الأزياء الذي مات العام الماضي، فضحك وضربها على على فخذها العاري قائلا:

– لله يا زمري .. ما علينا .. لكن برضو ماقلتيش، ليه شايفاني غريب؟

– فيه مثل عند بنات كارنا بيقول "اللي تبقى معاه المَكَنَة والمُكنة ومايدُرش يبقى موتوره طافي" وإنت صحتك بمب ما شاء الله، ومع ذلك قلبتها دردشة من أول الليل؟

سكتت فجأة بعد تعليقها هذا حين داهمها صداع في مقدمة رأسها كأنه طرق الشواكيش، وضعت يدها على رأسها تدلكها وسألته قائلة:

– عندك برشامة مسكن؟

– بلاش أسبرين مع الشرب، إزازة الميه جنبك، اشربي على قد ما تقدري علشان الصداع يهدا

تناولت الزجاجة وعبت منها فسالت المياه على عنقها وصدرها، تناول منديلا ورقيا من علبة أمامه وأخذ يمسح به صدرها وعنقها قائلاً:

– كده هتاخدي برد، البسي هدومك أحسن

نظرت له نظرة دهشة عميقة دامت للحظات، ثم استدارت بوجهها ليده التي فوق عنقها تقبلها قبلات متلاحقة، ثم أعادت

النظر في عينيه وعلى وجهها ابتسامة عميقة المعنى لم يرها بوجهها منذ قابلها في أول الليل، سألها عما بها فأجابته قائلة:

– الأغرب إنك مش حاسس بغرابة اللي بتعمله، أنا اتعودت الرجالة تعريني مش تخليني أستر نفسي علشان مابردش! إنت حسستني إني بني آدمة لحم ودم .. أحيه علي وعلى الشقا! مرت بي ليال بوست فيها رجل الزبون علشان يعتقني ويسيبني أروح لحالي، وليالي ضربني فيها الكلب ورماني م العربية وهي ماشية علشان ياكل شقايا بعدما نقط الرقاصة في الصالة بكام ألف جنيه! وليالي اتفقت مع واحد ولقيت خمس تيران مستنيني في شقته .. وليالي كان الزبون فيها مايتكيفش غير لو شتم أبويا وأمي لسابع جد، يعني الليلة اللي يكون فيها الزبون عادي ويخليني أروح في أمان الله كنت أحمد ربنا إن الدنيا لسة بخير! كل ده .. ومش عاوزني أستغرب من حنيتك؟

– ليه أنا اللي أكون غريب مش هم؟

– يعني كلهم مجانين وإنت لوحدك العاقل؟

أجابها بأنه لا يراهم مجانينا ولا أشرارا بل معذبون، ولهذا عذبوها بعذاباتهم، فهذا الذي لا يتركها إلا بطلوع الروح إنسان يحب أن يعتصر كل شيء لآخره، لو أكل في مطعم فسوف يلوث ما تبقى من طعامه حتى لا يتيح لبعض المساكين

أن يتذوقوا فتاته، فهو يكره الناس ويظن أنهم يكرهونه، وهذا يعذبه ويحرضه على تعذيب الناس، أما من ينثر الآلاف على قدمي راقصة في العلن ويأكل عرق فتاة ليل في السر فهو رجل يهمه إبهار الناس أكثر مما تهمه حتى متعته الشخصية، وفي هذا يكمن عذابه، لأن رضا الناس غاية لا تدرك؟ وهذا الذي يتفق معها بمفرده لتجد خمسة رجال معه هو إنسان يشبه "حرامي الحلة"، يعيش ليقتنص من الدنيا ما ليس له ولا يسعد إلا بذلك، ويسمي نفسه "ناصحا"، وهو يتعذب لأنه لن يقنع بما يقتنص أبد الدهر، أما هذا الذي لا تسعده غير الدماء والصراخ في الفراش فهو فاقد للثقة في رجولته، ويحتاج لصراخها ليغطي على صوت شكه في ذاته، وهذا عذابه، أما الذي يسبها أو يطلب منها أن تقبل حذاءه فيغلب أن يكون "ملطشة" في عمله أو بيته، ولهذا لا يجد من يستأسد عليه ليحقق ذاته إلا مسكينة مثلها، وهذا عذابه وهوانه، وهكذا .. لكل منهم عذابه الخاص، هكذا شرح لها "أكرم" قبل أن تسأله عن طبيعة عذابه هو شخصيا فأجابها بأن قلبه هو عذابه كما قال "صلاح جاهين" رحمه الله:

قلبي رميته وجبت غيره حـــجر

داب الحجر ورجعت قلبي رقيق

فهو رجل وحيد، فقد أبويه مبكرا و لم يكن له إخوة، ولهذا صارت طاقة الحب في قلبه ملكية عامة لكل البشر، لا يملك نفسه من الحزن لكل ما يحيط به، يكره الفقر والمرض والجهل، ويكره البقع الفاتحة في وجه صبي مصاب بسوء التغذية، ويكره قدمي طفلة حافية، أو مشهد رجل مكسور تحت حمل العيال وطلباتهم، أو مشهد امرأة تمضي من بيت لبيت لتستر بيتها، يكره كل تلك المشاهد ويتألم لها، ولهذا يعيش الألم ليل نهار، وربما لم يتزوج لأنه لم يجد من تقبل قلبا كالمساكن الشعبية يشاركها فيه كل البشر، وحياة يعتريها الألم في كل حين.

أجابته "اعتماد" موضحة أن أول ما استغربت من أمره أول الليل كان وقوفه بسيارته حتى عبرت الشارع امرأة عجوز وبيدها طفل صغير، فعادة ما يقف الرجال لتمر امرأة جميلة أو أي "جثة حريمي" أمامهم ليتأملوها من أمام ووراء، لكن المرأة كانت عجوزا واهنة ليس فيها موقع لعين، ومع هذا توقف وأشار لها لتعبر في سلام، ابتسم "أكرم" لملاحظتها الذكية، ثم نبهها لأنه بعد كل هذه الحكايات لم يعرف كيف بدأت طريق البغاء؟ فأجابت موضحة أن الأمر بسيط جدا، فقد خاب ظن "بهاء" في اليوم التالي، ووجدت نفسها منقولة من المطبخ لتعمل كنادلة في البار الفخم الذي يرتاده وجهاء الإسكندرية:

- وهل ذهبت لعملك في اليوم التالي لواقعتك تلك مع العجوز الشمطاء؟

هكذا علق وهو لا يخفي دهشته من سرعة استيعابها لجرحها المهين وإهدار آدميتها، فأجابت:

- فكرت ماروحش وقلت لأمي إن السبب قلة أدب صاحب البار، وإن إيده طولت علي، فحلفت أمي يمين ما أخطيها تاني، لكن أبويا ماكدبش خبر لما عرف وحلف عليها يمين طلاق لو ماخلتنيش أروح ورجلي فوق رقبتي

وصفت له كيف صرخ أبوها في وجهها في ذلك اليوم وهو يمسك شبشبه "الزنوبة" الأخضر،وقال أنه لا يريدها "موسوسة" كأمها التي تترك الخدمة عند أسرة كل يوم وآخر مدعية أن صاحب البيت يغازلها كأنها تظن نفسها السفيرة "عزيزة"، وعيرها هي وأمها بأن زوجات وبنات أصدقائه يطعمون رجالهن الشهد، ثم ذكرها بأنها بغير عمل ولا مال لن تجد من يستر عليها ويتزوجها, وهكذا ذهبت يومها وقد قررت أن تخوض التجربة بكل ما فيها، كأنها تنتقم من الأب الديوث بجعله ديوثا إلى أبعد حد، فكلماته هونت العفة وعظمت المال في عقلها وضميرها، وهكذا شيئا فشيئا دخلت عالمها الجديد، قصت عليه ما مر بها في أول ليلة عمل في البار، وحصولها على ثلاثة عشر جنيها كنصيب من البقشيش، وكيف طارت لمحطة

الرمل فاشترت جوربا بثلاثة جنيهات، واشترت لأسرتها شطائر الكبدة الاسكندراني والسجق الشرقي، فكان عشاء أسطوريا للأسرة المحرومة، وحكت له كيف دللها أبوها يومها دلالا لم تعرفه منه قبلا، وناب أمها من الحب جانب فحصلت على لقب "أم اعتماد" بدلا من لقب "بنت الكلب" السابق، ثم كان طبيعيا أن تتطلع "اعتماد" لما هو أكثر من البقشيش، فقد ارتفع سقف تطلعاتها ليتجاوز الجيتر الضيق والشراب الفوال وسندوتشات الكبدة والكفتة، فهي تحلم بمبلغ تستطيع به أن تفتح مقهى خاصا بها أو محل كوافير يضمن لها المستقبل، وتلك طموحات لن يفي بها البقشيش مهما زاد، وتعلمت من زميلاتها كيف تحصل على ما هو أكثر، لكنها حافظت على بكارتها فترة من الزمن بسبب حلم عبيط بعريس ينتشلها من كل هذا، لكن الحلم انتهى يوم صادفها عرض سخي مقابل بكارتها، جاءها العرض من "طويل العمر" الذي يحمل جنسية قطر عربي شقيق، ويهوى قطف أول الثمار، أو ذبح أول الخراف لو أردنا الدقة، نقدها ثلاثة آلاف جنيه وحصل على ما أراد، ثم وسعت نطاق عملائها حين تعرفت على "منال" فضمت خدمة رغبات العجائز الشواذ لقائمة خدماتها الفنية، وقد كانت تلك النوعية من عملائها أفضل وأنظف وأقل ميلا للضرب والبهدلة، لكنهن في ذات الوقت لا يدفعن بسخاء كالرجال، فمن الصعب أن تجد امرأة تجزل العطاء لامرأة أخرى أكثر مما تقتضيه الضرورة.

كان نور النهار قد غمر الكون حين نظرت في ساعتها وقالت:

- إنت حنين قوي وأنا حبيت قعدتك، بس النهار طلع وأنا خلاص .. هلكت من التعب

شرعت في ارتداء مشد الصدر الأسود، فلاحظ فيه "أكرم" تمزقا صغيراً أسفل الإبط، كأنها لتعاسة حظها لم تحقق شيئا من التفريط في كرامتها، بدأت طريقها بمشد مقطوع كما حكت له وهاهي تنتهي بآخر ممزقا، يعرف يقينا أن امرأة لم ولن تثرى من الدعارة إلا لو كانت حاصلة على لقب فنانة، فالأرقام الفلكية لا تدفع لامرأة، ولكن لشهرتها التي يباهي بها رجل الأعمال المنحرف والسياسي الفاسد أقرانهما في نادي القمة المعطوبة ببلادنا.

سألته قبل أن تمضي لو كانت ستراه الأسبوع القادم، فطلب منها أن تترك الأمر للظروف، فالتغيير بحد ذاته هدف، لأنه أقسم يوما ألا يدمن امرأة بعدها، وكذلك لا يسعه التفكير في مرة قادمة الآن، ففي كل صباح يعقب ليلة من لياليه تلك يشعر بوخز في قلبه وجسده كأن عرقه شوك القتاد، فيسارع بالاغتسال تائبا ويقسم ألا يعود لمثلها أبدا .. لكنه في كل مرة يعود!

التوأمان

في قلب الليل، في ساعة وسط بين انتصافه وشروق شمس اليوم الجديد، ولج الكهل الأربعيني داخلا قدس الأقداس، هكذا كان يسمي غرفته الصغيرة المنعزلة بمنزله، غرفة تضم خلاصة عمره وأعصابه على ضيق مساحتها، إذ لا تتجاوز الثلاثة أمتار طولا والمترين عرضا، لكنها تتسع لكتبه والكمبيوتر الخاص به فوق مكتب حوت أدراجه أوراقا وأشعارا وآمالا وآلاما بغير حصر، وعلى الفوتيه الوثير - أرقى ما في الحجرة من أثاث - يستقر العود الذي يعزف عليه في ليالي الصفاء وليالي الجفاء على حد سواء! كانت هذه الأشياء فضلا عن اسطوانات الموسيقى الأثيرة لديه وجهاز تشغيلها القديم بسماعته الواحدة - بعد أن أثكله الدهر شقيقتها — هي ذخائره القريبة لقلبه، أو عالمه الصغير الحميم على حد تعبيره.

جلس على الفوتيه بعد أن ركن العود للحائط، وفتح النافذة أمامه فهبت منها نسمات منعشة تحمل آخر دفعة من عبق

الشتاء في فبراير، ذلك الشهر شديد التميز والتباين عن غيره من الشهور، فالأسبوع الأول منه يزامن آخر أيام شهر طوبة، وهو شهر الإلهة الأنثى المقدسة "طوبي" الذي سمي باسمها، ومع الأسبوع الثاني منه يبدأ أمشير، وكان قدماء المصريين يعرفونه بشهر النماء، ففيه يفيض النهر وتتفجر البذور بالحياة المكتنزة في باطنها لتغطي الأرض الخصبة بلون أخضر بهيج، كان فبراير شهر احتفالات الربات الإناث في العالم القديم شرقا وغربا، فاحتفل اليونان فيه بعيد "ديميتر" ربة الحصاد والإلهام، وعيد "جايا" ربة الأرض الأم، واحتفل الفرس فيه بعيد "يامياز" ربة الخصوبة، وكذلك احتفل الرومان فيه بالربة "منيرفا" ربة السلام والخير والموسيقى! فأي شهر أنت يا فبراير القصير بأيامه والعظيم بتراثه؟ هكذا كان يفكر وهو يتنسم رائحة الشتاء التي يعشقها ويفتقدها صيفا، وجلسته تلك متكررة في كثير من الليالي، أو قل في أغلب الليالي، وكم من فجر ولد على يديه وهو ساهر بهذه الصومعة الليلية، وكم من نجم بعيد لقي حتفه في فضاء الكون أمام عينيه الساهرتين، وكم من نجم قريب عطف على وحدته فشاغله بالضياء والبريق، فما أكثر ليالي السهر والسهد، لكن الليلة ليست ككل ليلة، وهذا الفجر ليس كغيره، فهو يشعر بنشوة جعلته يرى حجرته أرحب، ويرى وجهه في المرآة أصبى، حتى النجوم رآها تلمع أكثر، وسمع قلبه

يعزف في جوفه لحنا قديما كاد ينساه، لحن القلب المفتون، لحن الرجل حين يهوى ويتمكن منه هواه، فالليلة هي ليلة عيدها، عيد مولدها الذي تزامن مع أعياد الربات الوثنية القديمة، وخاصة "ديميتر" التي كان يرى في تماثيلها شبها من ملامحها الحبيبة، و"فينوس" الفاتنة التي قدستها كل شعوب الأرض يوما، وكان عبادها المخلصون يحتفلون باليوم الذي ولدت فيه من زبد البحر، فيشربون بشائر النبيذ الأحمر ويرقصون في المروج الخضراء، وكل حبيب يعانق حبيبته، فقد كان الوصال في عيدها عبادة وكان الهجر إثما، فأنعم به من عيد للعاشقين! يذكر أنه قال لفاتنته ذات يوم:

- هل كانوا قديما يحتفلون بولادة "فينوس" من زبد البحر أم يتضرعون لها لتعجل بمولدك من تدفق نور القمر في رحم المحار؟

- توقف عن مبالغاتك الشعرية، لستُ جميلة لهذا الحد

هكذا ردت يومها باسمة، تطلب توقفه عن الغزل بلسانها وابتسامتها تأمره ألا يتوقف أبدا، فأجاب قائلا:

- حتى أدرك لأي "حد" أنت جميلة، يجب أن يكون هناك "حد" أقيس عليه، فما العمل لو أنك صرت أنت "الحد"؟ يقاس عليك يا جميلتي ولا تقاسين؟

وهكذا كان حقا يراها، حوريته الخاصة جدا، فما من رجل في الأرض إلا وتخيل حورية الفردوس، تلك المرأة النورانية التي خلقها الله جزاء للصالحين والصابرين، الأنثى الجامعة المانعة، والنشوة المترهة عن البأس والندم، كل الرجال حلموا بها وتمنوها، لكنه وحده رآها رأي العين، وسمعها بشغاف قلبه قبل أذنيه، رآها وسمعها بدلا من المرة ألف مرة، ولو كان اللمس باستطاعته لمسَّها كما يمس العابد أيقونته، ولكن .. من هي؟ ولماذا يراها فوق البشر، ويظنها لا تنتمي لدنيانا؟ فيغلب على ظنه أنها "فرايا" ربة القمر السيلتية وقد تجسدت؟ أو "أوروبا" وليدة الزبد الرقراق وقد بعثت؟ أو "ديميتر" الملهمة بلا نهاية؟ أو "فينوس" الفاتنة ما بقي الزمن؟

رشف رشفة من كوب الشاي الأحمر أمامه، فشعر في فمه طعم النبيذ .. يشعر بمذاق الشاي حين يفكر فيها كمذاق نبيذ بوردو العميق! كأن لمجرد ذكراها قدرة على تغيير كينونة الأشياء؟ كقدرة المسيح حين تحول الماء بين يديه نبيذا في عرس قانا! تذوق الشاي بنشوة وهو يرفع عينيه للسماء ناظرا نحو "أورايون"[1]، رجل النجوم الجبار المعتد بذاته، يقف في السماء شامخا مباعدا بين ساقيه، وغارسا كفيه في جنبيه وقد تدلى

[1] مجموعة نجمية

السيف من منطقته، كأنه جبل من كبرياء .. تتسع ابتسامته وهو ينظر إلى المجموعة النجمية .. كان "أورايون" جبارا بحق قبل أن تحوله "المرأة ذات الكرسي"[2] إلى مشدوه يحدق فيها ليل نهار، كان جباراً قبل أن يفقد كبرياءه ويمسي عابداً متواضعاً في محراب الربة المتربعة على عرشها أمامه، تلك المعجبة بسطوة جمالها، المختالة بطغيان أنوثتها، الواثقة بذكائها، والمكتنزة بطاقة الحب والحياة، فما أشبه حاله هو بحال الرجل الجبار؟! فقد صارت أحلام اليقظة هي رياضته الروحية المفضلة منذ رآها للمرة الأولى في ذلك اليوم الخريفي المشمس، لم يعد يحلم بها بعقله وحسب، فقد تجاوز هذا مع الأيام والسنين فصار يتهجد باسمها بعقله وقلبه وجسده معا، فكل جوارحه بها تحلم، وكل كيانه بها مفتون، وما العجب وهي من هي؟ لحن الأنثى الخالد عبر الزمان! يوم رآها لأول مرة تداعت لذهنه على الفور لوحة "بوتشيلي" المسماة مولد "فينوس"، والتي صورها فيها الرسام العبقري كأنثى رائعة الجمال وجميلة الروعة، تولد ناضجة من رحم محارة عملاقة دفعتها أنفاس "زفيروس" رب الرياح نحو الشاطيء، يومها تخيلها وهي تحل محل "فينوس" في اللوحة، فتقف ممشوقة وسط المحارة، فوجدها أروع وأبهى من "فينوس"

[2] مجموعة نجمية

التي رسمها "بوتشيلي"، فتساءل: هل يمكن أن تكون من مادة البشر؟ أم تراها من مادة فريدة لم يصنع الله منها غيرها؟

تقول فاتنته عن نفسها أنها ليست جميلة لهذا الحد، لكنه يرى فيها حلم الفتنة والبهاء كما تصوره منذ طفولته، ولعل معاييره تغاير معايير الناس في هذا، لكن من يهمه معاييرهم؟ يذكر أنها قالت له يوما، مقارنة نفسها بزوجة أخيه التوأم:

— هي أفضل مني ألف مرة

— من قال أننا في مسابقة لأفضل امرأة؟ وحتى لو كانت الأفضل — وهذا غير صحيح— لقد قال القلب كلمته منذ كنا روحين في الأزل وقضي الأمر يا صغيرتي

كان يراها مجحفة أكثر منها متواضعة حين تنفي عن نفسها صفة الجمال، فقد كان مفتونا بها جملة وتفصيلا، ببشرتها رائقة السمرة كلون الخير في حقول مصر، ناعمة الملمس كماء النيل الرقراق، ودافئة الحنايا كأرض الدلتا الخصبة تحت شمس الشتاء، مصرية الجمال هي إلى مالانهاية، كأنها صورة من جدارية فرعونية ردت لها الحياة فسارت بين الناس، لينة الأعطاف كالرضيع، مرهفة الحس كأنها قدت من عصب مكشوف للهواء، وقد صيغ جسدها المكتنز بأنوثته بحيث تنساب أعطافه بنعومة موسيقى الكون وسلاسة تكوير الموج في بحر هادئ،

ويسيل شعرها الأسود محيطا بوجهها، يطير مع الرياح ثم يستقر على مرمر كتفيها، فلا يلبث أن يخاف حرارة الكتفين فيطير ثانية لتطفيء الريح لهيبه، ثم يعاوده الحنين للمرمر الدافيء فيعيد الكرة مرات ومرات، هكذا رآها بعينه الشاعرة في أول لقاء، ثم كان لقاؤهما الثاني في قاعة الدرس، وخيل له يومها أنها ابتسمت حين التقت عيناها بعينيه عبر طاولة الاجتماعات العريضة، تلك التي فصلته عنها كأنها كف القدر، فيالروعة الابتسامة! كان هذا منذ سنوات مل من عدها، لعلها عشرة أو أكثر، تحدثت يومها ملقية سؤالا، فسمع صوتها ولم يسمع كلامها، نعم .. فلها صوت يسمع لذاته ويفهم بذاته! كصوت الفراشات أو صوت الطيور، بل إنه يكاد يقسم أنه صوت يرى، تراه ناعما متدفقاً متدللاً لو كانت خالية البال صافية الذهن، وتراه مرتعشا يخفي رقتها الفطرية بارتفاع نبرته لو كانت غاضبة، وهو كذلك صوت ملموس، يمس أذنيك حين يصل إليهما، فيكون له مفعول القبلة الحارة خلف أذن مرهفة، وهو كذلك صوت يمكنك أن تتذوقه وأن تستنشق عبيره، فحين يتناهى إليك لا تملك انطلاق خيالك ليرسم صورة الشفتين اللتين خرج من بينهما، فتشعر بمذاق الشفاه في فمك كأنه خمر الجنة، أو كأنه اتحاد نار المجوس بماء العماد في رضاب مقدس، ثم تقترب بخيالك من شفتيها أكثر وأكثر، فترى

الفراشات التي جذبها النور تحوم حولها ولا تقترب منها خوفا من الموت حرقا! فآه لهما من شفتين رائعتين كانت له معهما حكايات وروايات .. كلها خيال في خيال!

تعارفا، وبعد التعارف جاء التلاطف، ومع التلاطف جاء التآلف، وفي كل يوم كان يهيم بها أكثر، ويعجب من حاله أكثر، كانت تقبل عليه حين تقبل كإطلالة الصبح، وكان حنين أبدي لم يشعر به منذ فطامه يدفعه نحو شفتيها كحنين رضيع لسائل الحياة الدافق من نهد أمه، لكن شفتيها ما كانتا أبدا معطاءتين كريمتين كنهد الأم، حتى في خياله كانتا تراوغان، فيلجأ للوجنات، لعل نعومة البشرة السمراء تطفيء لظى القلب، لكن خديها كانا عنودين كشفتيها، فكان يلوذ بشعرها الخفاق، يحاول لثم أطرافه، مستلهما نعومة كتفيها المنقوشة في ذاكرة الشعر الأسود، حتى الشعر كان يطير بعيداً في الهواء، فلا يجد من يقبله ضيفاً محروماً إلا كفيها!

يعصف بعقله شوق العمر، ويدفعه فرط الحنين، فيقبلهما كأنهما عتبات الفردوس، ويغيب عن الوجود فتتوحد شفتاه الظامئتان مع اليد الرقيقة العطوف، ويبقى هكذا مع خيالاته حتى تحين لحظة يحرم فيها حتى من الخيال، يشعر بكفها تنسل من بين أصابعه، ويفتح عينيه ملتاعا ليراها تركب محارة عملاقة

وتتجه لعمق البحر، كأنها تنوي عبوره مسافرة لأرض الأساطير، تلك الواسعة كالتيه، البعيدة كمدار الجوزاء، والباردة كالموت غرقا! يذكر أنه في تلك اللحظة كاد يسقط، بل يذكر أنه سقط في هاوية بلا قرار، وتمر عليه لحظات أو سنوات ليس يدري! لا يقيمه من سقطته تلك غير السلوى الكيميائية بأقراص علاج الاكتئاب، يحاول أن يعود بها لممارسة الحياة، أو لاقتراف الحياة! فالحياة بغيرها كانت خطيئة يقترفها وليست أياما يحياها، وحاول أن ينسى وأن يشفى منها، لكنه أبدا منها لم يشف، وأبدا من تيه عشقها لم يعد! يذكره حاله معها ببيت يقول[٣]:

وإني لتعروني لذكراك هـــــزة

كما انتفض العصفور بلله القطر

تمر به السنوات وهو يجتر حلمه بها كل ليلة، ويجتر عذابه بفراقها مع مطلع الفجر، هكذا كان حلمه بها في كل الليالي، حتى اختلف الحلم في الليلة السابقة، فلم ينته بالفراق، فعندما وصل بخياله لكفها الرقيق وهم أن يقبله، هاله أنها جذبت يده نحو شفتيها، وأنعمت على يده المرتعشة عشقاً بقبلات

[٣] شعر أبي صخر الهذلي

متتابعات، كأنها أول حركات الجنين في رحم عقيم، أو أول زخات المطر على أرض ظمآى، أو كأنها مخاض طفل إلهي في زمن الضلال، تمنى ساعتها لو صار كل كيانه كفا تنعم تحت شفتيها، وتمنى لو توقف الزمن، لكنه لم يتوقف بالطبع، بل توقفت القبلات وابتعدت المحارة مرة أخرى بعد أن تركته أكثر ولها وجنونا! كأن ربة المحار لم تكتفِ بقلبه، فأخذت عقله وجرته في أعقاب محارتها نحو البحر المحيط. يفيق من أفكاره وعجبه من حلم الأمس على صوت يد تقرع باب غرفته بقوة، وقبل أن ينطق سائلا عمن بالباب يفتح باب الغرفة ويدخل منه توأمه اللدود، أم تراه توأمه الحبيب؟ لطالما احتار في وصف مشاعره نحو أخيه، هذا المفروض على حياته من المهد إلى اللحد، هل يشعر نحوه بإعجاب؟ حب؟ حقد؟ كراهية؟ أم كلها معاً؟ لكن المؤكد أنه لا يعرف توأمين متماثلين على تلك الدرجة من تناقض الطباع غيره وأخيه هذا، تقلب شاعر وعشوائيته مقابل التزام فارس وانضباطه، جنون أديب مقابل حكمة محارب، ضعف عاشق مقابل سطوة منتصر، اندفاع فنان مقابل تروّي مقاتل، وصهيل عاطفة مقابل زئير واجب، لم كل هذا التناقض؟ ما حكمتك يا إلهي من هذا العناء؟ هكذا كان الشاعر يفكر وهو يرى توأمه متجها نحوه بخطواته الواسعة الواثقة ليسأله في ضيق ظاهر:

- لماذا لم تنم منذ الأمس؟ تعرف أني لا أنام إلا عندما تنام أنت، فلو كنت أنت فارغا عاطلا إلا من أساطير عشقك فأنا لست كذلك، إن لي عملاً وعلي الاضطلاع به، وعملي هذا هو ما يمول حياة الفراغ التي تسميها أنت حياة إبداع.

- ما المطلوب؟ هل تقترح أن أتعاطى أنا منوماً حتى تنام أنت؟

- جربنا المنومات ألف مرة ولم تجدنا شيئا، إنما أسألك لماذا عدت ثانية لسهدك؟ ألم تعتد فراقها منذ زمن بعيد؟ ألم ننته من أمرها؟

- تعرف السبب كما تعرف عني كل شيء بطريقتك.

- آه .. تقصد لأنها عطفت عليك أمس في حلم من أحلام يقظتك بالوصال؟ فردت على ولهك بقبلات طبعتها على كفيك، هي لم تفعل هذا يا أحمق، إنه خيالك أنت يحاول أن يفلت من عقال! ألم نتفق أنك أكبر - سناً على الأقل - من هذه الترهات؟ ما الفائدة وأنت تعلم أنها لم تكن لك يوما ولن تكون، وتعرف السبب كما تعرف اسمك

- الأوراق .. الهوية

- بالضبط، أنت لا تمتلك هوية كي تحب أو تتزوج، أنا من يملك الهوية، وأنا من يستطيع الزواج، وقد فعلت ذلك وتزوجت منذ زمن بعيد وانتهى الأمر

- رحم الله أبانا، أصر حتى وفاته على أننا شخص واحد ولسنا توأمين، فقد صدق الطبيب النفسي الأحمق الذي قال له أننا فتى واحد مصاب بمرض تعدد الشخصية، فكتب علي أنا الحرمان من الهوية والكينونة، وكتب عليك أنت الحرمان من الشعور، وعلينا أن نصبر وأن يحتمل أحدنا الآخر لنستمر في مكابدة الحياة، أتعرف .. ربما كان أبونا يعرف منذ اليوم الأول أننا اثنان، لكنه فضل أن يتركنا هكذا، لأنه يعرف ما في طبيعة كل منا من نقص لا يتممه غير الآخر، فأراد أن نواجه حياتنا معا.

- لكن حالتك منذ تصدقت "ديميتر" عليك بقبلتين صارت لا تحتمل، أراك ولم يمر عليك يوم وليلة قد وصلت بأفكارك لحد الدم .. للجريمة! وأي جريمة! أول جرائم البشر وأفظعها!

هكذا أجابه توأمه وعلى وجهه سيم الجد والغضب، فنظر الشاعر نحو الأرض في خجل، لقد فكر بالفعل في جريمة نكراء، فكر في قتل توأمه ليرث هويته وبطاقته الشخصية، وبهذا يمكنه الزواج منها .. من "ديميترا" الحبيبة،ليعيش في ظلالها الوارفة

للأبد، لكنه احتار كيف ينفذ جريمته؟ هو لا يستطيع قتله، ليس لأنه أخوه، ولكن لأنه الأقوى والأقدر، هو من يوفر له المأوى والطعام والتبغ والورق والأقلام، وبدونه لن يستطيع الحياة قطعا، وفضلا عن هذا كله، فتوأمه مضطلع دائما على كل فكرة تدور برأسه وكل نية تجيش بصدره، فأين المفر؟ في كل هذا فكر الشاعر بعد حلم النعيم الذي زاد شوقه وأفرغ صبره، وهكذا دوما رشفات الماء الضنينة بعد طول الظمأ تلهب العطش ولا ترويه! فتثير الجنون!

أفاق من إطراقته الخجلى على صوت توأمه يقول:

- تجاسرت أنت على التفكير بقتلي؟ ولكنك بالطبع لا تستطيع، لأني أمثل لك كل شيء تقريبا، والآن أسألك أنا، لماذا يتعين علي أن أحتملك؟ أنت بالنسبة لي لا شيء، فلماذا أترك مهووسا مثلك يعرض حياتي ومستقبل أسرتي للخطر؟ كنت أحتملك لأنك أخي، حتى أهدرت أنت حق الأخوة بتفكيرك الآثم في قتلي.

- أنا الإنسان الذي كان يجب أن يسكن صدرك، لهذا تحتاجني، ولا يمكنك العيش بغيري، لا يمكنك العيش بغير الحب والشوق وإلا صرت شيطانا

- حقا؟ دعنا نرى إذا لو كانت قرون الشيطان ستنبت في رأسي الآن

قالها الفارس وهو يخرج يده من جيب سترته فيلمع بها خنجر فضي طويل النصل، يراه الشاعر فتنتابه رعدة وتتسع حدقتاه من هول المفاجأة، لماذا لا يمكنه قراءة عقل أخيه كما يفعل أخوه معه؟ لماذا وهبت الطبيعة أخاه هذه الميزة الفائقة! هذا ليس عدلا! هكذا فكر الشاعر لفوره قبل أن يستجمع رباطة جأشه فيقول:

- بإمكانك أن تقتلني، لكني مازلت مصرا أنك لن تستطيع الحياة بدوني، ستصبح آلة بلا معنى ولا مضمون ولا إبداع، مجرد آلة تعمل حتى يعلوها الصدأ فتستقر في غياهب النسيان، أنا وحدي من بوسعه أن يحقق لكلينا الخلود بأشعاري

- لقد سئمت من شعرك ومن الثمن الباهظ الذي يكلفني إياه، عذرا يا أخي، لكن على أحدنا أن يموت حتى يعيش الآخر دون أن يقتحمه القلق كل ليلة كغزو بربري، فوداعا يا من كنت توأمي

هكذا أجابه توأمه ثم دفع الخنجر في صدره بطعنة واثقة قوية، ارتعد جسد الشاعر على إثرها بينما نصل الخنجر الفضي يمزق نياط قلبه، وسال دمه حبرا أزرق فوق النصل حتى بلغ كف قاتله، ثم سقط الشاعر العاشق ناظرا نحو القمر وسبح باسمها، بالاسم الأعظم الذي إذا سألت به "إفروديت" أجابت،

خيل للفارس أن الأرض ترتج تحت قدميه مع خروج الاسم من شفتي أخيه مصحوبا بدمه، ثم سكن جسد الشاعر المرهف ميتا! ألقى الفارس بخنجره بعيدا وانحنى على جثة توأمه والدموع تلمع في محجريه الصخريين، فقال:

- لست وحدك يا أخي الحبيب من أحبها، فأنا مثلك عشقتها وأردتها، ولكن بلا جدوى، فكل الكون حولنا يرفض حبنا، في كل لقاء كان الكون يردد صراخه رافضا، حتى هي، كانت تقول ألف لا كل مرة، لكنك لم تسمعها، وحدي أنا من كان يسمعها فتشق قلبه قبل أذنه! آسف يا رفيق العمر، بمفردي يمكنني أن أتلهى عنها بعملي وحياتي، لكنك كنت تذكرني بها كل يوم ألف مرة، لأتعذب بها وبك، لذلك كان يجب أن تصمت للأبد.

أغمض عيني أخيه، وقبل جبينه بحرارة بقايا الحب الأخوي الصادق، ثم لم يلبث أن تمدد ونام على الأرض بجواره كأنه لم يقتل ابن أبيه منذ لحظات.

في الصباح، أفلتت منه دمعة عاصية وهو يرتدي ملابسه، العجيب في الأمر أنه لم يتذكر شقيقه وخيط دمه الذي أراقه أمس، لكنه تذكرها فعاوده الحنين! لقد قتل بعضا من دمه حتى يسلوها، ومع ذلك يراها تتقافز في خاطره بدلالها وبريق عينيها

وحيوية شفتيها، وعندما كان يقود سيارته في الطريق إلى عمله، سمع صوت أخيه يأت من بعيد، سمعه مترنما بأنشودة يصاحبها صوت ناي شجي، كان ينشد قائلا:

تركت قلبي في الرفات .. وصحبت حبك للأبد

هنيئا يا هاجرة .. ففي القلب .. وحبك قد خلد

يوميات نائب في المستشفى

(١)

مصرع حصان

اليوم الحادي والعشرون من الشهر الأول من السنة الأولى للنيابة

يوم غزير المطر من أيام شهر أمشير ذائع الصيت بأنوائه وتقلباته، والمطر قد بلل أرض شارع "سعيد" الواقع في قلب مدينة طنطا جارفا في طريقه الأتربة الكثيفة ليتراكم وحلا على جانبي الطريق، الشارع يعج رغم المطر الغزير بالسيارات على كل شكل وحجم ولون، فضلا عن الدراجات وعربات الكارو، والمارة يحاولون شق طريقهم وسط كل هذا في غياب أية محاولة جادة لتنظيم المرور! فنحن في موعد خروج المدارس وانصراف الموظفين، والمظهر العام يوحي بأن السلطة المركزية التي عرفها المصري منذ "فجر" تاريخه قد نامت بعد "عشاء" هذا التاريخ وخرجت من الصورة تماما، وفجأة يصدر صوتٌ عالٍ ويلمع شرر كأنه صاعقة فوق الرؤوس، فقد انقطع سلك

الكهرباء الذي يمر أعلى الشارع بفعل المطر والريح، وهوى الطرف الحر للسلك على رأس حصان يجر عربة كارو فانتفض الحصان كمن مسه ألف شيطان وخر على الأرض صريعا، وهو يتشنج لافظا آخر أنفاسه، ومع تشنجه علا صراخ العربجي وزوجته، واندفعا نحو الحصان بلهفة أب وأم على وحيدهما، فما أن تحققا من موته حتى علا صراخهما وأوسعا وجهيهما لطما وخمشا، انهار العربجي متهالكا على أسفلت الشارع الموحل ودفن رأسه بين ركبتيه وهو يرتعد باكيا، بينما زوجته الملتاعة تشق جلبابها الأزرق عند الصدر ليظهر تحته جلباب منزلي آخر من الكستور المنقوش حائل اللون، ثم تخلع شبشبها البلاستيكي الأخضر الغارق في الوحل فتلطم به خديها وتولول قائلة:

- مين اللي هيأكل الغلابة يابي .. ياريت كان عيل من عيالي ولا إنت .. ياريت ما عشت وشفت يومك يا مشبع الغلابة!

أوجع عويلها قلبي المكدود، ولسبب ما تذكرت فيلم "الحرام" الرائع حتى الإنبهار والمؤلم حتى الأنين، وتذكرت "فاتن حمامة" وهي تقول لطفلها الذي قتله الفقر بيديها عبارتها الشهيرة المترعة حزنا "جدر البطاطا كان السبب يا ولدي .. جدر البطاطا كان السبب"، فقد كانت نبرة زوجة العربجي في

الحقيقة قريبة جدا من نبرة زوجة عامل الترحيلة في الدراما، وهكذا المساكين يتشابهون! يسم الهوان وجوههم ويضرب الفقر على هيئتهم ويرن الحزن والقنوط في أصواتهم، كان عديدها أشبه بامرأة مات عنها زوجها وليس حصان زوجها، ولا عجب في ذلك، فالحصان للعربجي هو رأسماله وأداة إنتاجه التي يتعيش منها بنقل البضائع زهيدة الثمن التي لا يخشى عليها تلف من الارتجاج والتعرض لعوامل الجو، كحمولة رمل أو بضعة عشرات من بلاط رخيص، كانت لوعتها عليه منطقية ومبررة تماما، إذ ينقل موت هذا الحصان أسرتها من طبقة "محدودي الدخل" التي يتحدث عنها الجميع ولا يفعل لها أحد شيئا، إلى طبقة "معدومي الدخل" التي لا يتعطف عليها أحد حتى بالحديث، فلم أتعجب من دفعها من يحاول تهدئتها من المارة بيديها المطينتين وهي تطلب منهم أن يتركوها لحالها، فليس بينهم من يشعر بنارها ويذوق مرارتها, وكان آخر مشهد علق بذهني من تلك الواقعة هو مشهدها وهي تأخذ من طين الأرض فتضع على رأسها، طقس مصري صميم من طقوس الحزن يرمز لتمني الموت والدفن في التراب، فقد اعتاد المصري دفن موتاه على الربوة العالية التي تتكون عاما بعد عام في قرى الدلتا من بقايا الطمي الذي حمله الفيضان، لهذا مازالت مدافن الكثير من القرى مرتفعة عن مستوى القرية ذاتها، ومن التابوت الفرعوني للنعش القبطي للكفن الإسلامي لم يدفن المصري موتاه دفنا حقيقيا، ولكن مجرد دفن رمزي بنثر بعض التراب

فوق الجثمان أو النعش، لأن الدفن في لحد فعلي معناه وصول المياه القريبة من سطح التربة الزراعية للجسد، وهكذا رمزت زوجة العربجي لتمنيها الموت فقبضت بكفيها من الأوحال ووضعت على رأسها تماما كما رمزت "إيزيس" لحزنها على موت "أوزوريس" ذات يوم في الماضي السحيق

مرت سنوات على هذه الواقعة التي حدثت وأنا طالب بمدرسة طنطا الثانوية للبنين، لكني أذكرها كأنها أمس القريب، وأذكر كم ألح علي بعدها مقطع من شعر عامي يقول:

المجتمع زي الرصـــيف .. وسخ ولازم يتكــنس

فيه ناس بتعوق ع الرغيف .. وناس بتعوق م التنس[1]

(انتهت بهذين البيتين القصة كما سجلها الدكتور علاء قديس في الصفحات الأولى من مفكرة سوداء)

---

١ شعر فؤاد حداد

(٢)

ابن البحيرة

الدكتور "علاء قديس" لو كان شخصه يهمكم كثيرا هو نائب أمراض القلب في المستشفى الجامعي بطنطا، أقام في طنطا منذ كان في السنة الأولى بكلية الطب مفارقا أسرته على شاطيء بحيرة المترلة التي شهدت طفولته وصباه، لم يسعفه مجموعه ليلتحق بجامعة المنصورة الأقرب لمسقط رأسه، فاختار طنطا لدراسته وإقامته مؤقتا، و"علاء" إنسان عادي في كل شيء، في السابعة والعشرين من عمره، مصري السمرة، معتدل القامة، ربعة بين الطول والقصر، عيناه سوداوان ناعستان خلف زجاج نظارة تصحح قصر نظره، بسيط في ملبسه وهندامه، لا تتوقف عنده العين كثيرا ولا يترك أثرا واضحا في نفس من يراه، وشخصيته تشبه في هذا مظهره، فهو هاديء الطباع، ليس في سلوكه أو صفاته ما يميزه، ولا ما يدفعك لأن تحبه أو تكرهه، لهذا يمكننا القول بصفة عامة أنه من فئة يطلق عليها عندما تتقدم لخطبة فتاة "جدع طيب وابن حلال"، ولعل خصوصيته محصورة في أمر واحد، هو خواطره التي يكتبها في مفكرة سوداء من حين لآخر منذ كان طبيب امتياز وحتى نهاية فترة النيابة في المستشفى الجامعي، تلك الفترة الأشبه بتنفيذ حكم بالسجن لثلاثة أو أربعة أعوام، يعمل خلالها الطبيب ويأكل وينام في المستشفى لا يغادره إلا لتنفيذ مهمة أوكلت

إليه من أحد أساتذة القسم، وعادة ما تكون مهمة شخصية، أو مهمة طبية يتقاضى الأستاذ الكبير أتعابها ويقوم بها الطبيب الشاب "علشان يتعلم"، هكذا كان كبار الأطباء يقولون لشباب الأطباء، فلا يتمون العبارة الصحيحة وهي "علشان يتعلم الأدب" لقاء تفوقه في الثانوية ودخوله لكلية من كليات القمة ثم تفوقه فيها وتعيينه نائبا في الجامعة، وغني عن الذكر أن من يتمرد على هذا البرنامج التعليمي شديد الخصوصية من النواب الشباب لن يرَ الماجستير بعينيه، وستنتهي فترة نيابته بغير ماجستير فلا يعين، ويجد نفسه بعد عناء ثلاثة أعوام عجاف "ماسك الهوا بإيديه" كما قال العندليب.

اعتاد "علاء" أن يسلي وحدته في نوبتشياته بالمستشفى والتي قد تمتد لأكثر من ثمانية وأربعين ساعة، ينام خلالها لو نام على كنبة جلدية مفتوحة البطن بارزة الأحشاء في غرفة الأطباء بكتابات هي مزيج من اليوميات والخواطر، فكان يكتب في مفكرة سوداء بعض ما مر به في حياته من أحداث قديمة، وبعض ما يمر به في المستشفى من مواقف حديثة ويسجل خواطره حولها، ذلك أن وسائل التسلية في نوبتشيات النواب محدودة للغاية، فإما كتاب يقرأ فيه، وإما مجموعة جرائد معارضة يقرأها فيسب الدنيا ومن يعيش فيها بأقذع السباب، أو راديو صغير إذ لم تكن الموبايلات ذات الراديو موجودة بعد، ثم هنالك وسيلة تسلية أخيرة لكنها غير مأمونة العواقب، وهي فتح باب الكلام على البحري مع واحدة من الحكيمات عادة

ما تكون أجملهن نسبيا وأصغرهن عمرا، وهنا مكمن الخطر، ففتح "قعر المجلس" هذا مع حكيمة شابة في هدأة ليل المستشفى الرومانسي الذي لا يقطعه غير أنين المرضى، وفي جوها العليل المعطر بالمطهرات، قد ينتهي بكيوبيد يرمي مشرطا في قلبيهما، أو بحكيمة عجوز تأكلها الغيرة فتتصنع ثورة للأخلاق وتدعي أن الحال المائل لا يعجبها، فتنسج حولهما رواية لا تنتهي عادة إلا أمام مجلس القسم، لكل هذا وجد "علاء" في مفكرته السوداء رفيقا آمنا يبثه همومه وخواطره الطبية وغير الطبية، ومن الصفحات الأولى في تلك المفكرة قرأنا سويا مأساة الحصان الشهيد، فدعونا نقلب في الصفحات ونطالع معا ما كتبه الدكتور "علاء" في صفحات تالية.

(٣)

الصحابي والقديسة

اليوم الثالث من الشهر الحادي عشر من السنة الثالثة للنيابة

نشأت مع أصدقائي المسلمين والأقباط في المترلة بدون عقد تقريبا، نحضر معا مولد القديسة "دميانة" أو "الست دميانة" كما يطلق عليها الريفيون في تلك القرية المسماة باسمها والتابعة لمركز بلقاس، ونحتفل معا بمولد الصحابي "عبد الله بن سلام" في تلك الجزيرة المسماة باسمه والتي دفن بها، لم نكن نهتم ونحن نلهو في قرية القديسة أو جزيرة الصحابي بتمييز مسلم من مسيحي، وفي تلك الموالد سمعت مع أصدقائي من المسلمين حدوتة الست "دميانة" التي وهبت بتوليتها ليسوع، وطلبت من والدها حاكم وادي السيسبان[٢] أن يبني لها بيتا في البراري تتعبد فيه مع أربعين عذراء من صويحباقا وهبن بكارقن للرب، فبنى لها قصرا في موقع الدير اليوم، أقامت فيه مع صلواقا وأصوامها حتى ذبحها "دقلديانوس" مع العذارى الأربعين، بعد أن حاول جنوده سحقها في مطحنة فتقدس اسم الرب فيها وبرأت من جراحها، وكذلك عرفت أنا وغيري من الصبية الأقباط حكاية

[٢] في مركز بلقاس محافظة المنصورة حاليا

الصحابي "ابن سلام" الذي كان حبرا يهوديا وأسلم ثم جاء إلى مصر مع دخول العرب إليها، ومات فوق تلك الجزيرة فدفن فيها كغيره من الصحابة الذين ضمت رفاقم الأرض الرؤوم في قرى المحروسة، كان والدي يحب الأذان بصوت الشيخ "رفعت" وكانت والدة أحد أصحابي المسلمين تحب مدائح الراهبات، فهكذا كان قبول كل منا للآخر بل وحبه لهذا الآخر يزيد ويتأصل يوما بعد يوم، وبقي الحال على هذا المنوال حتى تزايد في مدينتنا الصغيرة عدد من يطلقون على أنفسهم الأصوليون، فظهرت هوة تلتها جفوة، وزادت الجفوة مع انتشار ثقافة الطائفية على أيديهم لتمسي فجوة، ثم بعثت من غياهب النسيان تعبيرات قديمة تقسم الأمة طائفيا، "أهل ذمة" و"ذميون" و"نصارى"، ثم تطورت تلك التعبيرات الجادة القديمة التي بعثت حديثا إلى إشارات ساخرة، مثل "أربعة ريشة" إشارة للصليب رباعي الأذرع، أو "عظمة زرقا"، وهو وصف عنصري قديم يعود لأيام العثمانيين، حين قرر سلطان الترك في القرن السابع عشر أن يضع الأقباط في أعناقهم سلسلتين سميكتين من حديد ليسهل تمييزهم! وكانت السلاسل الثقيلة تترك أثرا على ترقوة من يرتديها يميل لونه للزرقة، ولم تكن تلك التعبيرات القديمة التي بعثت والجديدة التي ابتدعت محض كلمات، بل إشارات لها دلالتها على تغيير عميق وشرخ متفرع في جدار الوطن، وهكذا

ولدت الفجوة الطائفية لتتسع مع الأيام، وبقيت أنا أتجاهل هذه التغيرات لا شعوريا دون أن أرهق قلبي الصبي بتصنيف البشر، إلى أن صرخت الحقيقة العارية في وجهي وأنا في السنة الأولى من دراستي الثانوية، يوم طُرِدتُ من مسجد دخلته لأحضر عقد قران شقيقة أحد أصدقائي، فقبل أن يعقد القران نظر نحوي شاب يطلق لحيته ويرتدي زيا ربما كان باكستانيا أو أفغانيا، كان يعرفني شكلا وأميزه أنا كذلك دون معرفة، فما أن وعاني جيدا حتى دار على عدد من زملائه هامسا في آذانهم، فجمع منهم ثلاثة غيره ووجدت الأربعة يتجهون نحوي ككتيبة الإعدام، ويطلبون مني الخروج بغير مشاكل! وحين حاول صديقي أخو العروس أن يحتج أسكتوه بلهجة عنيفة مصحوبة بنظرات كالطعنات النافذة لأنه سمح لنفسه أن يصادق "نصرانيا" في مخالفة رأوها صارخة لما ادعوا أنه أمر الله! في ذاك اليوم انتهى تجاهلي اللاشعوري للفجوة الطائفية، إذ لم يكن بد من التصنيف الذي فرض نفسه علي فرضا، بدأت أصنف أصدقائي وزملاء دراستي إلى مسلم ومسيحي، وشرعت أضع لعلاقتي بكل فريق حدودا مختلفة، وأتحفظ في كلامي وتصرفاتي مع المسلمين حتى لا أتعرض لموقف محرج كهذا الذي تعرضت له حين استجبت لدعوة صديقي، لقد كسر طردي من المسجد إطار المواطنة في وجداني ورفع بدلا منه إطار الطائفة رغما عني

ولست أدعي أن المسئولية عن تلك الهوة الطائفية تقع في عنق فريق دون آخر، فقد كان طبيعيا أن تنتشر عدوى التزمت كرد فعل بين المسيحيين، فالغباء يغري بالغباء، لهذا بدأت نبرة طائفية تظهر بين العائلات القبطية في مدينة المنزلة لتواجه النبرة المتطرفة للجماعات الأصولية، وكما انتشرت أمام المساجد كتب تفيض بالعنصرية وكراهية الآخر، احتلت رفوف المكتبات المسيحية كتبا تسيطر عليها نبرة الطائفية الفجة، واحتلت شرائط الدعاة ووعاظ الآحاد محل أشرطة "أم كلثوم" في البيوت والسيارات، وكلما قصرت الجلاليب البيضاء تضخمت الصلبان المدلاة على الصدور، وفي أحاديث الزيارات العائلية اختفت المناقشات السياسية والاجتماعية المهمومة بحال البلد والمنطقة لتحل محلها أحاديث عن اللغة القبطية، وكيف يرى البعض أنها لغتنا الحقيقية وعلينا أن نتعلمها ونعود إليها (لم أسمع بعاقل غير لغته الأم بأخرى غير المهاجرين الأوائل لاسرائيل!)، كذلك شاعت عبارة تقول بأننا أصحاب البلاد وغيرنا هم الوافدون، وتداول الشباب كتيبات تقلب في التاريخ بحثا عن مذابح يقال أنها حدثت عند دخول العرب في نقيوس ودمياط وغيرها، وبدأت أسمع أحاديثا تدور بين أبي وأصدقائه عن المادة الثانية في الدستور، وعن خلاف الرئيس مع البابا، وبدأت كلمة اضطهاد تقرع أذني كثيرا، ثم بدأت أخبار تتزايد

عن فلان الذي هاجر إلى كندا، وعلان الذي سافر إلى أمريكا، وبالتالي زاد عدد الفلانات والعلانات ممن فاتهن قطار الزواج، ويوما بعد يوم تم طمس الهوية المدنية المصرية لصالح هويتين، إذ تزايدت في شارعنا المصري الذي كان بالأمس القريب متجانسا أعداد المدارس والمستوصفات والأندية الطائفية بداية من اسمها وحتى كل تفاصيلها، بل ظهرت لفرط دهشتي محلات ملابس وعطور وإكسسوارات ومقاهي تجاور كنيسة أو مسجدا وتتخذ صبغة طائفية هي الأخرى.

(٤)

قرابين الضلال

مرت الأيام والتحقت بكلية الطب كما تمنى والدي، فوجدت هويتين دينيتين تتصارعان تحت الهدوء الظاهري في غياب هوية قومية أو وطنية كتلك التي جمعت شباب ١٩١٩م أو جيل يوليو، كانت الهوية الدينية في مجتمع الجامعة تقدم في صورة دعم مادي ملموس وبعيد كل البعد عن الروحانيات، إذ كانت الأسر الطلابية حزبية أو عنصرية التوجه في مجملها، وكانت تقدم لأعضائها ملخصات ومحاضرات ومذكرات مجانية، وكل ما يغري الطالب المضغوط ماديا والفارغ ذهنيا لينضم لهذا الفريق أو ذاك فيمشي مع قطيعه، فشعور الضياع الذي يسيطر على طالب الثانوي حين يجد نفسه فجأة في الحرم الجامعي يهيأه لقبول أي انتماء يشعره بالأمان، وقد وفرت له تلك الأسر الغير متزهة عن الغرض السياسي هذا الأمان، وبمرور الوقت، بدأت عناصر من هيئة التدريس تنخرط في المنافسة الطائفية ذات الهوية الدينية، فهذا يراجع التشريح للطلبة المسيحيين في مشرحة الكلية مجانا، وذاك يعطي دروسا مجانية في وظائف الأعضاء بعد صلاة العشاء في قاعة ملحقة بمسجد كذا، وحتى ذلك الحد كانت الأمور في مجملها لا تتجاوز مظاهر خلل اجتماعي يقلقني بغير أن يصيبني شخصيا بضرر مباشر، فلم يترك أي من هذا مرارة بحلقي كتلك التي خلفها

امتحان الشفوي في علم وظائف الأعضاء في العام الثاني في الكلية، إذ أوقعني الحظ العاثر في لجنة الدكتور "العربي السباعي" المعروف بتطرفه، ولن أنس ما حييت نظرته نحوي وأنا أدخل عليه وجلا مرتبكا، نظرة قط شره لفأر سمين يتهيأ لالتهامه، لا أدري لو كانت الأسئلة التي وجهها لي بالصعوبة التي تخيلت وقتها أم أن خوفي أربك إدراكي وذاكرتي، لكنني لم أجب غير سؤال واحد من ثلاثة فصرفني بإشارة من يده ثم قلب شفته ممتعضا وهو يسجل الدرجة في كشف أمامه، أنقذني الحظ في اللجنة الثانية لنفس المادة بدخولي لجنة الدكتور "سيد طوبار"، بلدياتي من المنزلة، وسليل الأسرة العظيمة التي كافحت المستعمر الفرنسي بقيادة البطل "حسن طوبار"، سألني الدكتور "سيد" عمن اختبرني في اللجنة الأولى، ولما عرف أنني مررت بمعصرة "العربي" الشهيرة سألني سؤالا واحدا غاية في البساطة ثم ابتسم وطلب مني أن أنصرف، وهمس لي وأنا أقوم من مجلسي أمامه قائلا:

– اطّمن يابني

شكرته وأنا أود لو كان بوسعي أن أقبله، فقد مسح القهر عن كاهلي برقة شعوره وفطنته، فالفارق والشتان بين "سيد" و"العربي" كان كالفارق بين الجنة والنار، ولعل السبب أن الأول رجل ينتمي للزمن الجميل، أما الثاني حديث العهد بالأستاذية والعائد من إحدى الممالك النفطية فهو ابن زمنه

بكل تراث الغباوة والبداوة فيه، أذكر أن سؤالا شغلني يومها، هل يتصور هذا "العربي" أو الدكتورة "جانيت" رئيسة أحد الأقسام التي اشتهرت باضطهاد الطلبة المسلمين أنهما بذلك يتقربان إلى الرب؟ أيمكننا التقرب للآب السماوي العادل بظلم البشر؟

(٥)

ليلة هستيريا

اليوم الحادي عشر من الشهر التاسع من سنة الامتياز

تكمن في نوبتشيات الاستقبال الممتدة من منتصف الليل وحتى الثامنة صباحا مشكلتان، الأولى هي حالات الهستيريا التي تكثر في الساعات الأخيرة قبل فجر اليوم الجديد، والثانية حالات الاستعباط المتعمد لمختلف الأسباب، وكانت ليلتي أمس هي ليلة الهستيريا والاستعباط بحق، فبخلاف ثلاثة حالات جروح قطعية نتجت عن معركة بالمطاوي في كفرة العجيزي، وتم عمل اللازم لها بإجمالي ٤٧ غرزة للثلاثة، لم يكن لدينا سوى حالات هستيرية وحالات أخرى "استهبالية"، كانت أول حالات الهستيريا سيدة شابة جاءت إلى الاستقبال بقميص نومها، يحملها زوجها وجارتها، وكانت تتشنج وترتعد وتبدو غائبة عن الوعي، فنظرت بوجهها لحظة فرأيت فرجة دقيقة بين جفونها، ورأيت بؤبؤ عينيها يتحرك ناظرا نحوي خلف الجفون المسدلة بتوجس وتطلع، إذن فهي ليست فاقدة الوعي فسيولوجيا، لا بأس .. مددت يدي لاسبراي "زيلوكين"[٣]

[٣] مخدر موضعي

ووضعت فتحة البخاخ في أنفها، وما هي إلا بخة واحدة حتى أفاقت من غيبوبتها جاحظة العينين وانتفضت واقفة على سرير الكشف كمن فرت من عقال! فرذاذ المخدر يسبب ألما حادا في أغشية الأنف كأنه صاروخ لحام، لكنه ألم بغير ضرر، وطريقة الإفاقة تلك علمية تماما ويطلق عليها مصطلح "التنبيه بالألم"، هكذا فوجيء الزوج المسكين بالمعجزة التي حدثت أمامه، فاستعراض الزيلوكين هذا غالبا ما يبهر المرضى البسطاء، لهذا انحنى على يدي يريد أن يقبلها، فسحبتها بسرعة ثم سحبته من ذراعه فخرجت معه من غرفة الكشف، عرضت عليه سيجارة "كليوباترا" قبل أن أوجه إليه سؤالا واضحا ومباشرا:

- حاولت تباشر علاقة زوجية مع جماعتك الليلة؟

بدا حائرا ووجلا وهو يفكر في صحة المعنى الذي فهمه، ثم فتح فمه مدعيا الهبل، وفرت عليه محاولات التشويش تلك فأوضحت مقصدي قائلا:

- يعني بالبلدي حاولت تنام معاها الليلة ومنفعش، ودي مش أول مرة تحاول .. ومش أول مرةماينفعش .. صح؟

- صح يا بيه

هكذا أجابني بعد سكتة ذهول نظر خلالها في ملامح وجهي كأنه ينظر لعراف أو سحار، نطقها بلهجة سحقها الهوان والانكسار، فطلبت منه ألا يكرر هذا حتى يعرض نفسه على

أخصائي ذكورة ويتعافى من عنته (يبدو من تاريخ المفكرة أنها كتبت في منتصف التسعينات، إذ لم تكن الحبوب الصفراء والزرقاء قد خرجت بعد لحيز الوجود لتنهي معاناة شريحة كبيرة من الزوجات وتنهي معها معاناة أطباء الامتياز).

خرجت الزوجة المحبطة ماشية على قدميها ومستندة لذراع زوجها وكتف جارتها، وعدت أنا لقراءة صحيفة كانت بيدي حين دخلوا، لم يكن في تلك الحالة ما يستدعي التأمل أو التفكير بعد الفراغ منها، فهي حالة يألفها أطباء الامتياز بعد منتصف الليل .. سيدة مصابة بهستيريا أيا كانت أعراضها، وغالبا ما يكون اسمها "رشا" أو "صابرين" أو "سماح"، يأتي بها للاستقبال زوج مرتبك وهي بقميص النوم، وشعرها المكوي ملون بماء الأوكسجين (والذي أتمنى أن يحرم دوليا) وتفوح منها رائحة عطر ماركة "ليلة الجمعة"! وعليها سيم الإحباط وعلى زوجها سيم الارتباك، هذه المتلازمة تعني لكل طبيب امتياز تشخيصا واحدا غالبا ما يصيب، احباط جنسي وضغوط نفسية إثر محاولات بائسة لزوج عنين!

لبثت أقرأ في صحيفتي مواضيعا بلا معنى لمجرد قتل الوقت حتى الثالثة صباحا، حين دخل علي شاب عشريني العمر تقريبا، ما أن رأيته داخلا حتى بحثت عن موضع الإصابة والدماء في جسده، فهو بلطجي تبدو آثار غرز الزملاء في عنقه وذراعيه!

ومن المتعارف عليه أن تلك الفئة من البشر لا تمرض، لم أرَ واحدا منهم أبدا بزائدة دودية ولا نزلة معوية ولا التهاب شعبي، هم يجرحون في معارك السلاح الأبيض ويصابون في حوادث الموتوسيكلات والميكروباصات فقط! لكن صاحبنا هذا لدهشتي لم يكن مجروحا، بل ادعي أنه مصاب بمغص، وقال وهو يشير إلى جنبه ناطقا بلسان أثقله دخان البانجو الذي زاده غباء على غباء:

- الشوية دول بينقحوا علي يا دكتور

نعم كان يقصد جانب بطنه بكلمة "الشوية"، وكأن جسده كوم سوداني مقسم إلى "شويات" و"منابات" وليس لأعضاء وجوارح مثلنا! ولكن كيف مرض هذا؟ ألم أقل أن هؤلاء لا تراهم مرضى أبدا ؟ ربما لأن المعارك والحوادث لا تترك للجسد فرصة ليبلى ويتقادم! وفّرت علي إحدى الممرضات حيرتي وهي تدخل غرفة الكشف وتنحني على أذني فتهمس بأن مدعي المغص هذا يأتي كل ليلة متمارضا ليصف له الطبيب حقنة مضادة للتقلصات، فتلك حجته ليدخل غرفة الحقن ليعاكس ممرضة اعتاد أن يلاحقها! اتضحت الرؤية إذن وصدق حدسي في أنه ليس مريضا .. يا ابن الفاجرة؟ هكذا إذن؟ تأكدت بالكشف من عدم وجود أعراض الأعور لأرضي ضميري المهني فقط إذ قد يكون مظلوما، لكنني لم أجده كذلك بالطبع، فأصدرت حكمي التأديبي عليه وكتبت في ورقة الوصفة الطبية:

خمسة سنتي محلول ملحي تحت الجلد

كتبت الروشتة وأنا أقول موجها حديثي إليه ومبتسما بمكر خبيث:

- معلش .. هتوجعك الحقنة شوية بس هتخف وترتاح من مشوار المستشفى كل ليلة

للمحلول الملحي أثر على نهايات الأعصاب الحسية حين يحقن تحت الجلد كأثر الحريق، وهو الآخر لا يسبب أي ضرر غير الألم اللحظي المبرح، ويعد من فصيلة "المنبهات المؤلمة"، ولهذا ما إن دخل "فالنتينو الحكيمات" غرفة الحقن حتى أتاني صراخه المتصاعد مع كل سنتي تصبه الحكيمة التي كان يلاحقها تحت جلده السميك، لابد أنها كانت سعيدة بذلك للغاية، فما أجمل أن ترى وجه من ضايقك دهرا وهو يتلوى من الألم، شعور طبيعي أن تسعد لذلك سعادة غامرة، وإن كان أغلب الناس يخجلون من الاعتراف بتلك السعادة، ويغضون أبصارهم وهم يقسمون أنهم ليسوا شامتين، وكأن الشماتة ليست النصر الوحيد المتاح للضعفاء في هذه الدنيا.

جدير بالذكر أن البلطجي اختفى إلى غير رجعة بعد ليلته تلك، إذ يبدو أنه كره الحكيمة التي حقنته بالملح أو صار وجهها يذكره بالألم، فقد توقف عن ملاحقتها حتى خارج

المستشفى كما علمت بعدها، وقد أتتني الحكيمة الطروب داكنة البشرة يومها شاكرة حيلتي الماكرة، بدت عليها سعادة حقيقية وشماتة لم تحاول أن تخفيها، نظرت في وجهها لأرى ما توقعت، فالفتيات من النوع "متوسط العفة" عادة ما يحرصن على إظهار سخطهن عندما يتعرضن لمعاكسات، على عكس الأنواع الأقل عفة التي قد تبتسم للمعاكسة وقد تخلع شبشبها ملوحة به للمعاكس وفقا لحالتها المزاجية، وكذلك خلافا للنوع الأكثر عفة والذي يكتفي في معظم الأحوال بامتعاض صامت ما لم يحدث تطاول باليد، لهذا عبرت لي الحكيمة عن شكرها وامتعاضها الشديد لتثبت أنها من النوع الأول، وعندما استدارت خارجة من غرفة الكشف لاحظت أنها مازالت متمسكة بمشيتها الرقيعة التي جلبت لها ولنا وجع الدماغ!

أما ختام الاستعباط أمس فكان رجلا مسنا جاءنا بعد أن صلى الفجر، ولأنه يعلم من خبرات الماضي أن الاستقبال ليس مخصصا ليقيس ضغطه من باب تزجية الوقت، فهو يصطنع كل بضعة ليالي ألما مبرحا في صدره كأنه جلطة في الشرايين التاجية، ليقيس له الطبيب النوباتشي ضغطه مرغما، وما أن يقاس الضغط ويعرف قراءته حتى يقوم كالحصان مدعيا أنه تحسن فجأة، ولولا أنه رجل عجوز طيب لطبقت عليه واحدة من عقوباتنا الطبية تنسيه ما بقي في عمره أن في عروقه دما وأن للدم ضغطا يقاس، لكن المسامح كريم والرجل بادي الطيبة ويشبه جدي شبها كبيرا، وهو على كل حال واحد من ألوف

البسطاء الواقعين في هوى جهاز الضغط الزئبقي والمحاليل الوريدية، فقد رأيت من المرضى من لا يبرأ من المغص لو حقن وريديا بأقوى مضاد للتقلصات، بينما يقوم كالحصان بعد كيس محلول ملحي نعلقه له ولو خلا من أي علاج! ذكرتني ملامح العجوز الطيب التي تشبه ملامح جدي الذي تنيح قبل ثلاثة أعوام بذلك الاعتقاد الساذج بأن ملامح أقباط مصر مختلفة عن ملامح مسلميها! حتى طريقة العجوز في تقليب مسبحته بيده شديدة الشبه بطريقة جدي، ربما كان أوضح الفروق بينهما أن مسبحة الأول تنتهي بمئذنه ومسبحة الثاني تنتهي بصليب!

(٦)

سلطان الكون

اليوم السابع من الشهر الأخير من سنة الامتياز

منذ ساعات دخل علي في غرفة الاستقبال رجل مسن طويل القامة يرتدي عباءة صوفية فوق بذلة كاملة في عز الصيف، كان يتصبب عرقا وهو يعرفني بنفسه قائلا أنه "محفوظ" بك .. سلطان الكون الجديد! نعم .. هكذا قال! وحين سألته عما أستطيع أن أقدمه له من خدمات أجابني بأنه جاء يخبرني فقط بخبر توليه للسلطنة بعد وفاة سلطان الكون الأسبق رحمه الله! وبأن علي إخطار كل من أعرفهم بالنبأ، فهمت للفور أنه مصاب بضلالات العظمة، أو ربما كان الأمر أكثر من هذا، ولما سألته عن قرابته بالسلطان السابق رحمه الله، والتي أهلته لخلافته، أجابني وهو يقوم واقفا وينظر إلي بازدراء:

- الكلام ده مش عندنا، الكفاءة الكونية هي معيار الترشيح، والاقتراع الحر في المجرات هو آلية انتقال السلطنة الكونية، فالكون يعيش اليوم والحمد لله أزهي عصور الديمقراطية

- ما شاء الله، أمال ليه فضل سلطنة ومبقاش جمهورية؟

- لأن للديمقراطية في كوننا مخالب وأنياب

- طيب ممكن سؤال تاني يا صاحب العظمة؟

هكذا ناديته مغازلا ضلالاته لأحصل على معلومة خمنتها، وأتى الغزل بثمرته فاستدار مبتسما ابتسامة واسعة لأنني "سلمت عليه بالسلطنة" كما تقول كتب التاريخ، وقال:

- أيوة يابني .. اسأل

- مولانا كان بيشتغل إيه قبل المعاش؟ قصدي .. قبل السلطنة؟

- مساعد وزير

صدق ظني إذن! آه لو علم كل صاحب نفوذ ذلك الثمن الفادح الذي ستكلفه إياه النفخة الكدابة التي يمنحها النفوذ والمنصب يوم يفقدها؟ ولو أدرك ما يحل بسلامته النفسية من هزات عند تركه لموقعه قد تصل لهذه الحالة؟ إذا لفكر مرتين في رباعية "جاهين" التي تقول: **ولدي إليك بدل البالون ميت بالون .. انفخ وطرقع فيها علي كل لون .. عساك تشوف بعنيك مصيرالرجال .. المنفوخين في السترة و البنطلون .. عجبي!**

ما أن خرج صاحب العظمة الكونية حتى دخلت "كارولين" عليَّ في غرفة الاستقبال مندفعة بخطوات عصبية وقد كشرت

عن أنيابها، نعم أنيابها، وليست هذه كناية، فناباها اللذان يتصدران فكها يعرفهما كل من في المستشفى، ويتسببان في تلك اللثغة الواضحة عندما تتحدث، و"كارولين" صيدلانية شابة تصر أنها بلدياتي رغم أني من المنزلة وهي من المحلة الكبرى! وتصر كذلك في جلساتها الحريمي في صيدلية المستشفى كما بلغني من أحد الثقات أني معجب بها ومتيم برقة لثغتها، وأنها لو شجعتني قليلا لدعتهم جميعا لجبنيوت[4] منذ العام الماضي، لكنها مازالت مترددة وتريد تقييم مشاعرها نحوي! وغني عن الذكر أن كل هذا من بنات أفكارها .. أو ربما كان "ولايا أفكارها" هو اللفظ المناسب!

المهم أن "كارولين" دخلت علي ووقفت أمامي مباشرة وعلى بعد أقل مما يسمح به القانون الأمريكي في الحفاظ على الأمن الشخصي للفرد، ثم انفجرت غيظا وهي تقول:

- شفت الست "شيرين" عملت إيه؟

ولعلي لا أذيع سرا لو قلت أن حروف السين والشين عند "كارولين" حروف رطبة، فقد كانت جملتها تلك حماما من الرذاذ المنهمر على وجهي وعنقي وصدري، ولما استوضحت جلية الأمر علمت منها أن "شيرين" استصدرت مؤخرا أمرا

[4] الخطبة الكنسية القبطية ويطلق عليها كذلك نصف إكليل

إداريا من مدير المستشفى بتعديل اجراءات تحديد الاحتياجات الدوائية في الأقسام بما يعطي لشيرين دورا طالما سعت إليه في مشتريات الأدوية، ولخدمة أهدافها التي .. لا ترقى فوق مستوى الشبهات، ثم عاجلتني "كارولين" قبل أن أنطق بحرف وقالت أنها تفكر في تقديم شكوى في مدير المستشفى لأنه يضطهدها بسبب طائفي، فأجبتها متعجبا:

- إيه علاقة الموضوع بالدين .. إنت اتجننتِ؟

- علشان ألاقي حد يهتم بكلامي وشكوتي ماتحطش في الدرج زي ميت شكوى غيرها

ألهذه الدرجة بلغت بنا استهانتنا بالسلام الاجتماعي لهذا الوطن؟ طلبت منها أن تهدأ وطمأنتها أني سأهاتفها غدا في أول النوباتشية حتى أكون رائق الذهن لأشير عليها بما تفعل، فانصرفت غير موفورة وقد قنعت بغنيمتها الممثلة في مكالمة تنسج عليها ألف حكاية جديدة عن جريي ورائها الذي لا ينتهي، و"شيرين" التي تعنيها هي رئيسة التمريض في المستشفى الجامعي الجديد، وهي من "مفتوحات البالطو"، أي أنها خريجة المعهد العالي للتمريض وليس مدرسة التمريض، ويميز الأطباء بين خريجات المعهد والمدرسة بارتداء الفريق الأول بالطو الطب الأبيض مفتوحا بينما يرتديه الفريق الثاني مغلقا، كما يطلق

على خريجات المعهد لقب "مِسّات" جمع "مِس" وعلى خريجات المدرسة "البنات" جمع "بنت"، وكأن مجرد نطق الكلمة بلغة أجنبية يمنحها مكانة أرقى من لفظها العربي! المهم أن "شيرين" تلك مصابة بعقدة "الثانوية العامة" لو جاز التعبير، وهي عقدة تتأصل في مجتمعات العمل التي تتميز فيها أحد الوظائف بسبب مؤهلها الدراسي، كحالة الطيار والمضيفات أو حالة الطبيب والتمريض أو حالة العسكريين والمدنيين في المنشآت العسكرية، وكانت "أبلة شيرين" الرافضة للتميز الطبقي للأطباء كثيرا ما تنعي مجموعها في الثانوية العامة الذي جعل فلانة أو علانة طبيبات وحرمها هي من ذلك، وكانت تخدر هذه العقدة لا شعوريا بالالتصاق بشاغل منصب مدير المستشفى الجامعي الجديد أيا كان اسمه، وقد تعاقب عليها ثلاث مدراء فكانت لهم جميعا خير رفيق، تلازم كلا منهم كظله ما بقي فوق الكرسي، فإذا تركه لم يرها ثانية لأنها تكون ملازمة للمدير الجديد، تستقبله في الصباح بقائمة طويلة من الأسئلة والمشاكل الفرعية التي يحلها عادة النواب الإداريون، وتودعه بقائمة أخرى بعد الظهر قبل خروجه من المستشفى، وتعقب على كل اقتراح يقوله المدير "الملهم" لحل أي مشكلة بقولها المميز الذي صارت المستشفى تتغامز به "فكرة هايلة يا دكتور"، وهي ليست فريدة من نوعها، فذلك النموذج الطفيلي ينتج عادة عند تكليف

موظف بعمل أكبر من طاقاته وإمكاناته العقلية، فيلجأ الموظف "المخضوض" للتقرب من الرجل الكبير ليشعره ذلك بالأمان الذي يفتقده، وليضمن أن يرد مدافعا عندما يفتح أي موضوع له علاقة بقصور في أداء عمله المسند إليه والذي يفوق إمكاناته.

(٧)

مع تحياتي لأستاذي العزيز

اليوم الرابع من الشهر الثامن سنة ثالثة نيابة

لدي الكثير جدا مما أود قوله، ولكني منهك حتى الموت، انتهيت من نوباتشية امتدت ٢٤ ساعة في الصباح لأمر على خمسة حالات يعالجها المشرف على رسالتي في ثلاث مستشفيات خاصة، فضلا عن حالتين في القسم الاقتصادي بالمستشفى الجامعي، كان علي متابعة الحالات نيابة عنه لأن سعادته سافر إلى الإسكندرية ليحضر زفاف شقيقة زوجته، وكان علي كذلك أن أكذب سبع مرات فأقول أن سيادته لديه ورشة عمل مع وفد من الأطباء الأجانب في الجامعة من باب الدعاية، أرهقني العمل وضايقني الكذب، لكن ما حطمني تماما كان تعليقا من أستاذ آخر هو العدو اللدود لمشرف رسالتي، وهو للحظ العاثر رئيس القسم حاليا والذي ينتظر منه أن يوقع قرار تعييني مدرسا مساعدا بعد الماجستير! قال لي إذ رآني منهكا حين وصلت لأتسلم النوباتشية الثانية كلمة نزلت في أذني كالرصاص المغلي "يا ابني إنت تاعب نفسك من غير فايدة"، فكانت تلك خاتمة يوم من أيام السخرة التي لا تنتهي

مادمت نائبا، سخرة يتوارثها الأطباء ويجنيها كل جيل على الجيل التالي، دون أن يتوقف مستنير ويقول "كفى .. فلنبطل هذا السخف"، وعندما ينتهي يوم السخرة بعبارة محبطة لا يسعك إلا أن تقول .. ولكن لماذا تحترفون تحطيم الأحلام يا أستاذي العزيز؟

(٨)

الدرس انتهى .. لموا الكراريس

اليوم الثامن والتسعون بعد انتهاء النيابة

ذكرتني الغلالة السوداء التي هبطت على عيني منذ الصباح بك يا مفكرتي السوداء، فعدت إليك الساعة وقد هدأ الكون لأفضي إليك بآهاتي التي كتمتها حتى عن أبي وأمي، ربما كبرياء وربما لأخفف عنهما لوعة الحلم الذي تحطم بطعنة غادرة فاجرة، والدي .. المهندس "ناجي قديس" خريج معهد القطن في بلد ينحسر بياض القطن عن حقوله، ووالدتي السيدة "شرويت برسوم" مدرسة الرياضيات، كان حلمهما أن أكون أستاذا بكلية الطب، ولأجل هذا الحلم دخلت الطب متنازلا عن حلم دراسة الاقتصاد، لكنني أخفقت في تحقيق حلمهما كما أخفقت في كل شيء، والساعة أرى إخفاقاتي أمامي تتراقص في الأفق المظلم، أخفقت في الحب لأن اختلاف الدين وأهوال المجتمع المترتبة عليه كانت تقف في طريق حبي، وأخفقت في الرياضة لأن بنيتي كانت أضعف من مقتضياتها، فلم يبق لي غير تفوقي الدراسي والعملي .. وهأنذا قد فقدته اليوم بورقة غبية معلقة على جدار! فاليوم، وبعد شهور من

حصولي على الماجستير والهائي لفترة نيابتي، علقت قائمة وظائف المدرس المساعد المطروحة للنواب .. وكانت فاجعة النهاية، فالمواصفات المطلوبة لوحدة أمراض القلب مفصلة تفصيلا على ابن أحد الأساتذة الأقل مني في التقدير، والذي انتدب في السنوات الماضية كطبيب ثالث في المستشفى بدون نوباتشيات ولا مرمطة! فالبحث الذي حصل به الزميل المحدود فريد عصره على الماجستير بحث عبقري، ومطابق بمحض الصدفة لحاجة العمل في القسم كما جاء في إعلان الوظيفة! فيا حاجة العمل .. كم من الجرائم ضد العمل والعاملين ترتكب باسمك؟ علمت الآن فقط مدى حكمة العبارة الشائعة التي تقول "**الطب يورث ولا يدرس**"، كان لأستاذي الذي قال لي منذ عام أن جهدي بلا فائدة كل الحق، جهد ثلاث سنوات أقسى من سنوات الخدمة العسكرية ذهب أدراج الرياح ككل جهد مخلص في هذا الوطن! والأفظع من هذا كله، أن والد المحظوظ الذي أخذ مكاني بفضل نسبه الشريف ناداني ووقف أمامي بدم بارد، ثم وضع يده على كتفي ليقول - فض الله فاه- أن علي ألا أندم لفوات فرصة التعيين، فقد تعلمت الكثير في فترة النيابة وأخرج الآن للحياة العملية كطبيب قلب حقيقي وليس مجرد حاصل على الماجستير، وبوسعي أن أعمل في القطاع الخاص أو أسافر لأحد دول النفط بحرية أكبر من المتاح

في وظائف الجامعة! يا سلام! لماذا لم تختر لولدك هذا الخيار الحر إذن يا دكتور؟ لماذا سطوت على مكاني يا أستاذ الأجيال؟ لماذا لم تتذكر حالك يوم كنت طالبا ريفيا لا حول لك ولا قوة غير اجتهادك مثلي؟ لم أتمالك نفسي أن استدرت وتركته دون أن أنبس بكلمة، وقبل أن يخرج مارد الغضب من صدري فيقتله! وهكذا انتهى بي درس النيابة، معلقا في أحبال الهواء.

(٩)

موسم الهجرة غربا

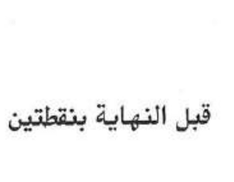
اليوم .. لا يهم .. فكل الأيام تتشابه

اتصل بي أخي "جوزيف" من تورنتو حين علم بالخبر من أمي، قال أن المنطق يقضي بتركي لمجتمع قديم تداعت أركانه وآل للسقوط لألحق بمجتمع جديد يعلو كل يوم ليناطح السحاب، علي فقط أن أنوي وعليه هو الباقي، وأخبرني أن بوسعه تدبير أمر الجامعة حيث أجري معادلة للبكالوريوس والماجستير، وبوسعه تدبير أوراق السفر لي ولأبينا وأمنا في غضون بضعة شهور، وقد هاجر "جوزيف" الذي يكبرني بثلاثة عشر عاما لكندا في نهايات السبعينات، أذكر أنه قال في أول زيارة له بعد سنوات، وكنت أنا في الحادية عشرة من عمري:

ـ دفء الوطن والأهل جميل، لكن نسيم الحرية والتنوير أجمل .. شد حيلك علشان تحصلني ونبدأ هناك فرع جديد للعيلة.

كنت دائما أرفض إلحاحه علي في الهجرة لكندا منذ كنت في المرحلة الثانوية، إذ أراد لي الالتحاق بجامعة هناك، كان يريد نقلنا جميعا هناك لنكون جذورا في تربة جديدة أخصب

وأقوى، وكنت دائم الرفض، وكذلك كانت والدتي التي تحب المنزلة وتقول أنها ستموت لو خرجت منها، ولكنها اليوم غيرت رأيها فجأة من أجلي، وقالت أن الجو أصبح خانقا لصدرها المصاب بالربو وتحتاج لجو نظيف، تضحي براحتها لتشجعني على قبول فكرة الهجرة كما ضحت لأجلنا جميعا طوال عمرها، عذرا يا أمي .. يبدو أنني فعلا سأعد حقائبي قريبا، فصقيع الشتاء الأبيض في كندا أهون من نار الظلم في مصر.



قبل النهاية بنقطتين

(١)

فأر النار

في بدايات القرن الماضي، عندما كان أولاد الليل يكيدون لفلاح يرفض دفع الإتاوة في غياب القانون، كانوا يصطادون الفئران حية في مصايد، ثم يربطون في ذيولها فتيلا مغموسا بالكيروسين يشعلون فيه النار ويطلقوا الجرذان في حقول القمح المراد حرقها، وكانت الفئران المسكينة تجري من النار وهي لا تعي أن النار صارت بعضا منها لا ينفصل عنها إلا بموتها! فهي لا تحترق وحسب، لكنها تحرق وتدمر عرق الفلاحين الذي بذلوه بسخاء حتى وقف القمح على عيدانه شامخا، يحمل في حباته الشبع والغناء للأسر الريفية المنسحقة بين طغيان الأعيان والوجهاء وشرور اللصوص والأشقياء! وهكذا كانت الفئران تموت غافلة عن سوء مصيرها وسيئات أعمالها! وخدعة قريبة

من هذه الخدعة فعلتها بنا قوى اليمين المتطرف العالمية، اصطادونا بمصيدة سلام فادحة الثمن، وكان الطُعْم معونة أمريكية وعقود عمل خليجية وشركات وبنوكا استثمارية اسما واستهلاكية فعليا، وهكذا ربطونا بحبال العلاقات الإقتصادية وأشعلوا النار في ذيولنا قبل أن يطلقونا في الحقول الذهبية والبيضاء والخضراء، ليحرقوا بنا قمحنا وقطننا، وقطاعنا العام وبنوكنا الوطنية، واليوم وقعنا بمحض إرادتنا على "التريبس"، اتفاقية الملكية الفكرية التي حكمت على العديد من صناعاتنا الوطنية – وصناعة الدواء على رأسها– بالموت البطيء أو على الأقل بالتخلف إلى مالا نهاية، لهذا يجب أن أتوقف، على فأر النار أن يكفر عن جناية الحريق الذي شارك في تصاعد أواره رغما عنه .. فيتوقف للأبد ومهما كان الثمن .. حانت ساعة الصفر للخطة القديمة..هكذا كان الدكتور "سيف الدين الراوي" المدير العام لشركة "فارماسين" لتصنيع الأدوية يفكر بشرفة شقته في المعادي في تلك الأمسية من يناير عام ٢٠٠٥، عشية سريان اتفاقية الملكية الفكرية، والتي منعت بمقتضاها شركات الدواء المصرية من إنتاج المركبات الدوائية الجديدة التي تحميها الاتفاقية بعد انتهاء فترة السماح، فرغم عدالة الملكية

الفكرية من حيث المبدأ، إلا أن حاجة الدول النامية الملحة لدواء منخفض التكاليف لا تقل عدالة عنها، وفي هذا كانت حيرته هو شخصيا، كان يمسك في يده بطاقته الوظيفية التي تحمل شعار الشركة المساهمة المصرية للصناعات الدوائية فارماسين، تأمل اسمه ومسماه الوظيفي أسفل الشعار، ثم أطبق أصابعه على البطاقة فكورها في قبضته وقد عزم عزما ظهر في عينيه .. ثم هدأت نفسه وقرت عينه بعزمه هذا .. فاستطاع النوم.

(٢)

استقالة

كان نهارا باردا في نهاية شهر يناير يوم أعلن "الرواي" استقالته، دعا مدراء القطاعات ورؤساء الأقسام للاجتماع به دقائقا معدودة، أعلن عليهم الخبر المباغت مبتسما ومُتهلل الوجه، فسادهم وجوم ثقيل وطفت على وجوههم أمارات دهشة تخالطها حيرة، لم يكن بطبيعة الحال محبوبا من الجميع، والبشر في نهاية الأمر لم يتفقوا حتى على الأنبياء، لكن يمكننا القول أن شعبيته كانت واسعة النطاق إلى حد معقول، وقد زاد من دهشة الجميع أنه لم يجاوز الثامنة والأربعين من عمره، ويفصله عن عمر التقاعد أكثر من عشر سنوات، لهذا كان الخبر غريبا، خاصة أنه أجاب من سأل عن خططه المستقبلية بأنه تهيأ لبداية مشروع زراعي في قريته بمحافظة الشرقية! مشروع زراعي يديره "سيف الدين الراوي" الذي قضى عمره في مجال الصناعات الدوائية! وقد حقق "الراوي" نجاحات باهرة في تاريخه المهني، كان معوله الأساسي فيها هو حبه للناس وقدرته على النجاح من خلالهم، فروح الفريق لم تكن عنده شعارا ولا مهارة مصطنعة، بل طبيعة أصيلة، وامتدادا طبيعيا لإيمانه الاشتراكي القديم بالجماهير وقدرتها على التغيير لو

توفرت لها قيادة تحرر إمكاناتها، وكان مع ذلك كثير المعارك في عمله، إذ كانت أغلب معاركه تنجم عن ضيقه بالياقات البيضاء وأصحابها، وانحيازه دوما لقاعدة الهرم المؤسسي، للقطاعات العاملة والنابضة بالحياة من ذوي الياقات الزرقاء، وكان يعلن ذلك صراحة، فيردد عبارة مأثورة تقول:

- لست محايداً ، أنا منحاز لمن هم تحت°

وكان أسلوبه الإداري مصدقا لعبارته تلك، فشهدت الفترة التي تولى فيها قيادة الشركة تطورا وظيفيا غير مسبوق لكثير من المواهب والطاقات الشابة التي عانت من التجاهل في عهد سابق، نُسبت خلاله إنجازاتها للياقات البيضاء من محترفي اغتصاب نجاحات الغير، وربما بسبب هذه الدفعة الكبيرة للمواهب الشابة لم تهدأ الحرب الباردة ضده من قبل الشيوخ والكهول ذوي الياقات البيضاء، فقد كان من جراء سياسته تلك أن قلت مركزية العمل فخفت قبضتهم عن مقدرات المؤسسة وبالتالي تهمش نفوذهم، كانت حربهم الباردة حربا خسيسة قوامها الوشايات والسعايات والدسائس، وكان يعلم بدسائسهم تلك ويراهم وهم يستقطبون الأعوان من ضعاف النفوس وصغار القلوب حوله، بما في ذلك سكرتيرته الخاصة، لكنه كان غير عابيء بهم كعادته في تجاهل الخفافيش التي

° الجملة لفنان الكاريكاتير السياسي ناجي العلي

يزعجها نور النهار، لكن شيئا من هذا لم يكن سبب استقالته، وواقع الأمر أنه لا يوجد سر غامض ولا سبب طارىء وراءها، فقد كانت مفاجأة لمن حوله، لكنها بالنسبة إليه كانت نهاية طبيعية فكر فيها ألف مرة ورتب لها عاما بعد عام منذ عام ١٩٩٥م حين وقعت مصر اتفاقية التريبس خلافا لمن يقارب ظروفها من الدول النامية كالهند وسوريا، كان يرى في تلك الاتفاقية نهاية فرضت نفسها على علاقته بصناعة الدواء، لأنها أفقدته حماسه، وقد بقي رغم طول الأمد محتفظا بطبيعة الفنان الهاوي الذي يبدع فقط عندما يملك الحماس! لهذا أفاد من فترة السماح قبل سريان العمل بالتريبس، فاشترى قطعة أرض في قرية أبيه، أنشأ فيها بيتا بسيطا ومريحا لإقامته، وعيادة أطفال صغيرة بجواره، وعاد للقراءة المكثفة في طب الأطفال خلال تلك الأعوام، وتردد على عيادة صديق طبيب أطفال يوم السبت من كل أسبوع ليتدرب كطبيب مساعد له، كان قراره بترك صناعة قضى بها اثنين وعشرين عاما صعبا ولا ريب، لكنه اتخذه منذ سنوات وحانت ساعة الصفر لتنفيذه اليوم، والعجيب أنه بقراره هذا قد ربح رهانا قديما .. ربما بقصد أو بغير قصد!

مد يده في جيب سترته الداخلي بعد أن خرج رؤساء الأقسام ومديري القطاعات من مكتبه، فأخرج ورقة قديمة ضاربة للصفرة وضعها أمامه على المكتب، ورشف رشفة من قهوته وهو يتأملها بنظرة غريبة، كأنه ينظر لكائن حي يتحرك، ثم مد يده نحوها بحرص جراح يمد يده بالمبضع لجدار قلب،

وفض طياها بروية خوفا من تهالك الورقة القديمة التي جففت السنين رواءها، كانت مكتوبة بخط اليد وبحبر أزرق، خط يده هو تحديدا! أخذ يتابع السطران اللذان احتوتهما الورقة الصفراء بعينيه كأنه ليس كاتبهما، أو كأن أعواما طوالا فصلته عنهما حتى كاد ينسى ما كتب، وكان السطران مجرد عبارة مبتسرة منزوعة من سياقها، تقول:

ليس عجزا .. ولو خضت مضماره لسبقته فيه

وكانت في أدنى الورقة جملة واحدة، كتبت بخط مختلف، وتحتها ثلاثة خطوط: **كلام .. مجرد كلام!**

توقفت عيناه عند تلك الجملة المنفردة، لتفيض نظراته بمشاعر متضاربة، ذكريات حميمة تختلط بأخرى أليمة، عذاب جرح يتناوبه شفاء ثأر، ومرارة خسارة يوازنها كسب رهان .. رهان العمر! فقد كتبت تلك الورقة في إحدى محاضرات الدراسات العليا في مدرج كلية الطب جامعة الزقازيق، كانت الجزء الثاني والأخير من محادثة صامتة مكتوبة على الورق جرت بينه وبينها أثناء المحاضرة، على عادة طلبة الجامعات في ذلك الزمان قبل ظهور الهاتف المحمول ورسائله، ولكن من هي تلك الزميلة التي بادلها رسائله؟

إنها "عالية سليمان".. عرفها في السنة الثالثة من دراسته الجامعية، كانت زميلته في الدفعة وتكبره بعام واحد، فقد

رسبت في السنة الثالثة في مادة العقاقير في الدورين الأول والثاني واضطرت لإعادة السنة، بدأت بينهما صداقة وطدها الثقافة المشتركة والاهتمامات التي كادت تتطابق، كان لكليهما ميول يسارية في ذلك الوقت من سبعينات القرن العشرين الذي خفت فيه صوت اليسار وتضاءل وجوده في المجتمع الطلابي إثر ضربات الإخوان المدعومة من النظام الحاكم، وفضلا عن هذا كانت لهما ذات الاهتمامات الأدبية والفنية والخلفيات المعرفية، وكانت فضلا عن كل هذا جميلة شرقية القسمات، رشيقة وأنيقة في بساطة وعذوبة، كأن الله في علاه خلقها كما تمنى هو تحديدا! فكان منطقيا أن يربط الحب بين القلبين الفائرين بالحياة، وبدا لكل من حولهما أن الظروف مهيأة لارتباطهما، فهما ينتميان لأسرتين من الطبقة المتوسطة المثقفة ذات الجذور الريفية، وقد تعارفت الأسرتان وجرى بينهما وتزاور، فصار لحبهما النامي مباركة اجتماعية، واتفقا على الزواج فور التخرج، وفي سنة التدريب الإجباري بعد تخرجهما والمسماة بسنة الامتياز كان الكل يتوقع خطبتهما، لكن القدر كما نعرف جميعا يعشق الانحناءات الغير متوقعة في أعماله الدرامية، فظهر في حياتهما "أنور فضل الله"، أستاذ جراحة التجميل المساعد في جامعتهما الإقليمية والذي يعيش في القاهرة حيث تقع عيادته الفارهة، وحيث يملك حصة قدرها الثلث في واحدة من أشهر مستشفيات النجوم الخمسة الواقعة على نيل المعادي، والتي تخدم الجاليات الأجنبية بالأساس، و"أنور" رجل ناجح

لأبعد حد بمقاييس السبعينات وما بعدها، و"عريس لقطة" بلغة الحموات، فهو لم يتجاوز الأربعين من عمره، أقرب للوسامة برغم بشرته داكنة السمرة، وأنيق أناقة مصطنعة تهتم بأدق التفاصيل كأنها تغطي نقصا داخليا بكمال المظهر، والأهم أنه لم يكن متزوجا ولا سبق له الزواج! كان يزور الزقازيق مرة كل أسبوع على الأكثر ليحتفظ بوجاهة عضوية هيئة التدريس وما تمنحه من ثقل طبي، واستمر ذلك حتى تعرف على "عالية" عندما تسلمت نيابتها في قسم الجراحة، فتعددت زياراته مع تنامي صداقته بالنائبة الجميلة حادة الذكاء، ولاحظ "الراوي" تغيرا بارزا في تفكيرها وحديثها منذ ظهوره في مسرح حياتها بكل ما لديه من مقومات الإبهار المادي، لم يفاجأ تماما من ذلك التغيير، كان يعرف نقطة ضعفها، والممثلة في تطلعها المتلهف لحياة فارهة بدرجة تتعارض مع نمطها الفكري، وكان هذا يقلقه، حتى ظهر "أنور" فصارت نقطة الضعف بحرا يفصل بينه وبينها.

وذات يوم، دار بينهما حوار حول سيارة "الراوي" من طراز "نصر ١٢٨" مصرية الصنع، والتي أهداه إياها والده عند تخرجه، قالت له:

- لماذا لا تستبدلها بفيات ١٣٢، فيها تكييف هواء فضلا عن كل الكماليات وتباع بتسهيلات دفع كبيرة، الدفعات الأولى ستكون إيطالية مائة بالمائة

– السؤال الصحيح هو لماذا أفعل؟ بالنسبة لطبيب شاب يبدأ حياته سيارتي أكثر من كافية

تكرر مثل هذا الحوار كثيرا وحول أمور عدة، وكانت القضية المحورية دائما أنها تهفو لامتلاك كل مقومات التميز الاستهلاكي الذي صار معيارا للقيمة في مجتمع جديد بدأ مخاضه، أما هو فظل يميل لتحقيق حلمه في عيادة قروية ثم مشروع إنتاجي في الريف، حلم شاذ تماما في تلك الحقبة الزمنية، وهكذا اتسعت الفجوة بينهما يوما بعد يوم وتدهورت علاقتهما بالتدريج، حتى كان يوم سخرت فيه صراحة من خطة حياته العملية، نفس الخطة التي طالما أثنت عليها في السنين الخوالي، كانت تشاركه الحلم وتتغنى به قبل ظهور "أنور" في حياتها، ففوجيء بها في ذلك اليوم وهي تصف حلمهما المشترك بأنه خطة هروب تضمن له تجنب معركة الحياة والمنافسة، وأن فرصة الرفاهية لو واتته لن يفلتها، لكنه فقط لا يريد القتال من أجلها أو من أجل أي شيء، كأنها تتهمه بالجبن عن مواجهة الحياة وبالازدواجية معاً! بهت ولم ينطق بكلمة، كانت امرأة جديدة تماما تقف أمامه وتحدثه غير تلك التي هام بها حبا، أدرك يومها أن كل ما اعتنقته من أفكار كان مسكنات لعجزها عن الوصول لرفاهية تهفو إليها سرا وتهاجمها علنا، وحين جمعتهما محاضرة تمهيدي الماجستير كتب لها هذه القصاصة الورقية، فكتبت ردها:

كلام .. مجرد كلام

يومها .. مررت إليه الورقة وعليها تلك العبارة فنظر فيها وقد علا الألم وجهه، ثم طواها ودسها في جيب قميصه، وعلاه وجوم ثقيل حتى انتهت المحاضرة فقام متجها لباب المدرج دون أن ينظر نحوها، نادته .. لكنه لم يجب، كان يشعر بخنجر مغروس في حلقه المنقبض، وبدمعة تراود عينيه عن طريق للخروج، كان عقله يردد رغما عنه سؤالا واحدا: أنتِ؟ أنتِ من بين كل الناس تقولين هذا؟ بعد كل ما عرفته مني وعني تقولين هذا؟ حبس دموعه ولم يبك، ومضى لبيت أسرته البعيد عن الكلية مشيا على قدميه وهو لا يشعر بما حوله، وبعد ثلاث ليال من الاعتكاف والعزلة في منزله، اتخذ قراره ووضع خطته، إذ قرر أن يثبت – ليس لها فحسب ولكن للجميع ولذاته قبل الجميع– أن رومانسية الشاعر ليست هروبا من سباق الانفتاح، فما أيسر أن يجد من كانت له مواهبا كمواهبه موضع قدم في هذا السباق لو أراد، وكان الإثبات الأكثر بلاغة ووضوحا هو خوضه ذلك السباق وتفوقه فيه، وهكذا بدأت رحلته، فعمل في شركة من شركات الدواء الأجنبية العاملة في مصر والتي زاد عددها في سنوات الثمانينات زيادة كبيرة، ولا شك أنه اندمج بعد هذا في حياته الجديدة، ومر بأوقات نسي فيها دافعه الأول تماما، فتوحد مع حياته العملية شديدة التنافسية بكل وجدانه، لكنه كان بين الحين والحين يصاب بنوبات اكتئاب وشعور بالاغتراب، حتى انتقل من الشركة الأمريكية لشركة فارماسين

الوطنية، فكان ذلك بداية تصالحه مع ذاته، إذ وجد في مشاركته في بناء صرح مصري لصناعة الدواء إرضاء لذاته الحقيقية، ووجد في إنتاج أدوية عالية الجودة ومنخفضة التكاليف تواكب احتياجات محدودي الدخل مهمة تستحق الحياة لأجلها، وزاد تحقيقه لذاته عندما حقق النجاح تلو النجاح فيها حتى صارت فارماسين علما من أعلام صناعة الدواء، لكن التريس جاءت لتنهي حالة صلحه مع ذاته، وتعيده للاختيار القديم، وقد اختار الخيار الأقرب لذاته هذه المرة، وهاهو يترك كل شيء ليقيم بمزرعة ريفية ويعالج أطفال القرية، فكم افتقد في سنوات السباق المحموم دعاء أم يسكن ألم صغيرها وينام فوق كتفها فتقول للطبيب **"الله يكرمك يا دكتور"** .. دعاء كان يشعر أن أبواب السماء مفتوحة له حين يخرج من شفتين خففتهما اللهفة على الصغير، لهذا يشتاق إليه ويتعجل سماعه ثانية! أخذته هذه الأفكار المتلاحقة وهو جالس على مكتبه لسؤال محوري، هل حقا ربح رهان العمر؟ لقد نجح في عالم ما بعد الانفتاح، وسبق أقرانه، ولكن هل عاش الحياة التي تمناها وقد قارب الخمسين من عمره؟ لقد عاش النجاح كما وضع قواعده الأمريكيون في تجربتهم التي يؤمن بصعوبة تعميمها وإن كان يحترمها، وكما أقره مجتمعه وارتضاه، نجاح معياره الجوهري مسمى وظيفي على بطاقة وحساب بنكي يتنامى مع الزمن، لكنه لم يعالج آلاف الأطفال كما تمنى، ولم يحمهم بالعلم الذي يسره الله من فتك المرض بأجسادهم

الغضة، لم يهنأ بخضرة الأرض على مد البصر، ولا استنشق نسيم العصر مع فنجان القهوة في مندرة صغيرة، لم تلسع أرغفة الخبز الريفي كفيه وهو يلتقطها بنار الفرن التقليدي، لقد نجح في حياتهم وليس في حياته هو، فمن الرابح ومن الخاسر؟

قطع تفكيره صوت طرقات على باب مكتبه، ثم دخل عليه أول من علم بالخبر من ذوي الياقات البيضاء وهو لا يكاد يخفي سعادة ينطق بها وجهه، فهو رجل من نوع يعتاد الكمون وتمرير الريح عندما تكون مضادة لأغراضه، يفعل هذا لسنوات لو اقتضى الأمر فلا يكاد يشعر به أحد إلا من جراء بعض مؤامراته التليفونية الساذجة، مؤلبا هذا ضد ذاك وهذه ضد تلك في دأب لا يكل، ولعله لو وظف دأبه هذا في عمل نافع لكان له شأن غير شأنه، ولما احتاج لمثل هذا الصغار الذي ينغمس فيه، قال الرجل وهو يمد يده نحو "الراوي" مصافحا وبسمة السرور باستقالته تكاد تفلت من شفتيه رغما عنه:

- ما هذا الخبر؟ هل هو قرار نهائي؟

أتى يطمئن لصحة الخبر إذن ويتأكد من عزم "الراوي" عليه! نظر له الأخير نظرة إشفاق على دناءته المزرية وتخنث روحه، ثم رد عليه بالإيجاب لعله يقر عينا، دعاه للجلوس وهو يتمنى ألا يجيب دعوته، وقد كان، فالرجل متعجل ليجري اتصالاته بشلة أصحاب المصالح ويزف إليهم تأكيد النبأ السعيد، نبأ رحيل الرجل الذي كره فسادهم وكره الكذب

الطافح من أفواههم، وكرهوا هم نظراته الصريحة الجريئة التي تعري أدرانهم، ولسانه الذي يجلد المتكبر ويخفض للصغار جناح الذل من الرحمة، وحتى لو لم يكن لدى صاحبنا هذا ما يفعله، ما كان ليجلس في مكتب "الراوي" دقيقة أخرى، فمثله لا يضيع وقتا مع رئيس تنحى عن منصبه، فهو من سلالة "عبيد من حكم" المنتشرة كالجراد في مؤسساتنا.

ثم كان ثاني من حضر لمكتبه يومها مجموعة تقارب العشرين من المخلصين من مختلف قطاعات وأقسام الشركة، جاءوه معبرين عن مشاعر تفيض بالرقي والنبل، لا غرض وراءها ولا رياء فيها، فرأى فيهم مظهرا إنسانيا جميلا من الإخلاص والوفاء، وكادت دموعه العزيزة تفلت وهو يطلب منهم جميعا زيارته في مزرعته الريفية ويعطيهم عنوانه وأرقام هواتفه الجديدة مكتوبة في ورقة، بدت اللحظات كأنها وداع رغم أن اليوم ليس يومه الأخير في الشركة، فأمامه بضعة شهور يسلم فيها عمله لمن يختاره مجلس الإدارة خلفا له، وما أن خرجت تلك الثلة النظيفة حتى تأهب للخروج، يريد أن يجعل لقاءه بهم آخر ذكريات يومه، وكان قد ارتدى معطفه بالفعل ووضع جهاز الحاسب النقال في حقيبته عندما دخل عليه صديقه الأقرب لنفسه وعقله بين زملائه، الدكتور "وحيد" رئيس قطاع الإنتاج، والذي عاجله قائلا:

- نفذت ما برأسك رغم كل ما قلته لك يا عنيد؟

- أريد أن أحيا كما أردت ولو .. قبل النهاية بنقطتين .. اشتعل الرأس شيبا ونيفت على الخمسين يا "وحيد"

لم يطل الحديث وانصرف عنه "وحيد" لارتباطه بأعمال، وكان آخر من رآه يومها من زملائه ذلك العجوز الطيب الذي نيف على السبعين ومازال يعمل بدأب كالشباب، إنه "عم مهدي" الذي أنصفه "الراوي" يوم سبه أحد رؤساء الأقسام بسباب فاحش لأنه تأخر في تقديم الشاي، فبكى الرجل الطيب من الهوان، وعلم "الراوي" بذلك فشكل لجنة ثلاثية للتحقيق قررت فصل رئيس القسم وإلزامه بالاعتذار مقابل عدم تحويل القضية للنيابة العامة كجنحة قذف، كان عم "مهدي" يستعيد هذا الحدث وهو ينظر إليه في حزن ويقول:

- لمن تتركنا؟

- لرب كريم، ولو ضاق بك الحال فالشرقية ليست بعيدة، والمزرعة تحتاج قطعا لكل يد مخلصة كيديك يا أبي

تركه "الراوي" ليترل من مكتبه فيستقل سيارته عائدا لمترله، وفي الطريق خطرت له "عالية" التي استأثرت بأول دقات القلب وآخرها، كم تمنى أن تكون معه اليوم، يوم يبدأ حياته التي أرادها عائدا لقريته في الشرقية، محافظة النخوة والكرم، وبرغم كل شيء تمنى للحظات أن يرن هاتفه المحمول ويفتح الخط

فيسمع صوتها، أمنية ساذجة، فكل شيء يذهب ويعود في دورات الزمن، إلا الحب والهوى، لو زال .. لا تزيده الأيام إلا زوالا

العائش في الوهم

(١)

الضريح

في صباه كان يذهب مع والده للصلاة في مسجد السيد البدوي حين يزورون عمته التي تعيش في طنطا، كان يحب أن يدخل لغرفة الضريح بعد الصلاة، ولم يكن دافعه التبرك أو التوسل، لكنه كان يستلهم بطولات الفارس والزاهد الكبير كما سمعها في مدائحه، وقد اعتاد أن يقف أمام المقصورة المذهبة، وقد نقشت فوقها الآية الكريمة (وكان فضل الله عليك عظيما)، فيتخيل كيف كان البدوي في حياته بطلا مدافعا عن حرية بلاده باشتراكه في القتال في معركة المنصورة ضد الصليبيين، ويتصوره بعين الخيال وهو يقاتل بسيفين ملثما فيفري الأعداء فريا، وتتردد في أذنيه أصداء تلك الأسماء الفخمة الجمة التي منحه إياها الخيال الشعبي، السيد .. البدوي .. الهاشم .. العطاب .. مجرش الحرب .. مجيب الأسارى ..

الملثم.. أبوالفتيان .. باب النبي .. بحر العلوم .. الصامت .. السطوحي .. ندهة المنضام .. شيخ العرب، وفي ذاك الضريح تعلق قلب "ماهر" بصورة الإنسان الفذ الذي يكرمه الناس بعد موته بدفنه في ضريح يتناسب طرديا مع مكانته وعبقريته الدينية أو الدنيوية، كان يعشق البطولة منذ نعومة أظفاره، ربما بسبب بنيته الهشة المرهفة التي جعلته بعيدا عن البطولة بذاته، وانضم "إبراهيم الدسوقي" إلى قائمة أبطاله حين ذهب إلى دسوق ليحضر زفاف أحد أقارب أبيه، وعقد القران في مسجد الولي الشهير، حيث بهرته أضواء النيون الخضراء التي تنبعث من المقصورة المذهبة، وقرأ بطولات القطب الصوفي على الجدران، وسمع أسماءه تتردد في المدائح بسيطة التركيب .. فهو الغوث وحامل لواء المعالي وقائد ركبان الأعالي، وهو أبو العينين سريع النداء..

ثم مرت الأيام ليكون ثالث الأضرحة في حياته هو ضريح "سعد زغلول" الذي زاره وهو طالب في المرحلة الثانوية، ولم يكن ضريح البطل القومي فرعوني الطراز والمشيد بشارع الفلكي أقل أثرا في نفسه من أضرحة الأولياء، فقد حمل ذات المعنى، البطولة وتقدير الأحياء لتلك البطولة تقديرا يمنح صاحبه الخلود..

ثم انقطعت علاقة "ماهر" بالأضرحة زمنا طويلا وإن لم تغادر صور الأضرحة الثلاثة مخيلته أبدا، حتى شاء له الله للمحامي المعتزل أن يقضي الشطر الأخير من حياته في خدمة ضريح، وأي ضريح!

السكه مفروشه تيجان الفل والنرجس
والقبه صهوة فرس عليها الخضر بيبرجس
والمشربية عرايس بتبكي و البكى مشروع
مين ده اللي نايم وساكت والسكات مسموع؟[6]

[6] شعر أحمد فؤاد نجم

(٢)

بجوار الرئيس

"ماهر عبد المنجي" مواطن مصري مثلي ومثلك، تقول خانة الوظيفة في بطاقته الشخصية أنه "حاصل على ليسانس الحقوق"، وكلمة "حاصل" هذه تعبير مهذب عن البطالة، من وجهة نظر الدولة على الأقل، لكن "ماهر عبد المنجي" في الواقع لم يكن عاطلا، بل إنه يشغل منصبا شديد الخطورة يجعله دائما على بعد خطوات من رئيس الجمهورية .. نعم رئيس الجمهورية .. ولكن ليس بشحمه ولحمه، فقد شاءت حكمة الله أن يكون الرئيس الذي يعمل معه "ماهر" بغير شحم ولا لحم، إذ تطهر من دنيانا بكل ما فيها، فصديقنا "ماهر" هو حارس ضريح الرئيس الراحل الذي كان يوما ملأ السمع والبصر، والزعيم العربي الأعظم في العصر الحديث، والذي لا تخلو عاصمة عربية كبرى من شارع أو ميدان رئيسي باسمه، ولا تخلو الساحة السياسية في أي قطر عربي من أنصار له يتبعون منهجه وينتسبون إليه، بل إن صوره مازالت بعد كل هذه السنين تحتل الميادين وتعلو في المظاهرات محمولة على الأعناق، ومازال اسمه حديث الناس في الفضائيات والإذاعات وعناوين الصحف رغم مرور عقود على رحيله، نعم .. هو ..

فصديقنا "ماهر" هو حارس ضريح الزعيم "جمال عبد الناصر" رحمه الله، التحق بعمله هذا تطوعا في نهايات عام ١٩٧٩م، وكان وقتها في منتصف الثلاثينات، وهاهو اليوم قد قارب الستين ومازال يجاور ضريح الزعيم الذي فضله على جوار الأحياء.

ولد "ماهر" عام ١٩٤٦م، حين كانت مصر حبلى بالثورة، وتمور بمؤشرات تقول أن تغييرا حتميا بات على الأبواب، وانطلقت شرارة الثورة بالفعل في ١٩٥٢م وهو تلميذ في الصف الأول الابتدائي، فعاش لحظات مجد الثورة في طفولته وصباه، شهد تأميم القناة، وحضر مع أبيه خطاب "عبد الناصر" في الأزهر الشريف عام ١٩٥٦م، ثم خرج مع الجماهير يهتف مكبرا ويردد معها: **هنحارب .. هنحارب**، كتب على غلاف كراسته وهو في المرحلة الإعدادية عنوان منزله منتهيا بالجمهورية العربية المتحدة — القطر الجنوبي، أما في الجامعة فكان نموذجا لجيل الثورة الذي تربى في حضانتها الفكرية، انضم في عامه الأول في كلية الحقوق لمنظمة الشباب، وكانت السنوات الثلاث من أوائل عام ١٩٦٥م إلى يونيو ١٩٦٧م هي أكثر أيام حياته نشاطا وعنفوانا، حتى كتب عليه أن يعيش انكسارات وانحسارات يوليو بعد أن عاش انتصاراتها، جاءت

الهزيمة في يونيو كضربة قاسية على الرؤوس، أصابه على إثرها دوار عنيف كما أصاب غيره من جيل الثورة، لكن رأسه لم ينكسر، وخرج للشوارع مع غيره من طلبة الجامعات يطالب بتراجع الزعيم عن التنحي هاتفا: **لا جامعات ولا تدريس إلا بعودة الرئيس**، ويردد بصلابة مع الجماهير: **هنحارب .. هنحارب**، وعاد الرئيس جاعلا أول همه إعادة بناء القوات المسلحة وإزالة آثار الهزيمة، ثم بدأت معارك الاستنزاف فتنفس "ماهر" الصعداء مع ملاحم شدوان وإيلات وراس العش وغيرها, لكنه تظاهر للمرة الأولى ضد زعيمه عام ١٩٦٨م ، مظاهرة هي لعتاب الأحباب أقرب منها لسجال الأعداء، وفضل وقتها أن يبقى في منظمة الشباب ولا ينتقل للتنظيم الطليعي، لأنه رأى في كوادر المنظمة من الصدق والوطنية ما لم يجد مثله في كوادر التنظيم الجديد، وعندما حصل على ليسانس الحقوق التحق بمكتب أستاذه في الجامعة وأبيه الروحي، والذي كان عضوا بارزا بدوره في الاتحاد الاشتراكي العربي، وأحد أهم الكوادر في معهد الدراسات الاشتراكية، وهكذا كان "ماهر" بوجه عام ابن جيله ووثيق الصلة بمجتمعه وزخمه السياسي والاقتصادي في ذلك الزمان، لكن رياح السموم أتت مبكرة وعلى غرة قاسية، مازال يذكر ذلك اليوم جيدا كأنه أمس القريب، يوم الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠م،

كان يحلق ذقنه في الحمام حين سمع نواحا في الشارع وصخبا متداخلا من عدة أصوات، فأرهف السمع ليقتحم أذنيه صوت هاتف يقول في لوعة: **الريس مات .. "عبد الناصر" فاتنا ومات**، ارتجفت يده في تلك اللحظة رجفة قوية جرحت الشفرة وجنته على أثرها، فخلفت ندبة باقية في وجهه حتى اليوم كأنها تذكار اليوم المشئوم، ألقى الشفرة من يده وخرج من الحمام ثم من باب الشقة مهرولا بمنامته، تتقاطر من وجهه الدماء، لم يكن له مقصد ولا كان لغيره من أبناء "الحلمية الجديدة" مقصد حين اندفعوا جميعا من بيوتهم، لعلهم كانوا ينشدون المواساة في رؤية وجوه بعضهم بعضا، ذات الوجوه التي تابعت خطبه من مذياع المقهى، ونفس الأصوات التي ناقشت قرارات يوليو الاشتراكية وجادلت بعد صدور الميثاق، نفس العيون التي بكت في يونيو، ونفس الحناجر التي هللت لأبطال الاستنزاف وقالت: مدد يا إبراهيم يا رفاعي[٧]

آخر ما تحتفظ به ذاكرة "ماهر" من يوم وفاة الزعيم هو مشهد جيرانه وهم يخرجون من البيوت ويتجمعون في الطريق بلا حول ولا قوة ولا وجهة، المشهد التالي في ذاكرته كان مشهده هو شخصيا وهو ذائب بين الملايين في الجنازة المهيبة

---

[٧] الشهيد العظيم وقائد مجموعة الصاعقة التي حققت إنجازات مبهرة في حرب الاستنزاف

التي أعلن بها الشعب حبه للرجل، وتقديره للزعيم، وتجاوزه عن أخطاء الإنسان في شخص "عبد الناصر"، وما إن أفاق كغيره من صفعة القدر القاسية حتى ثار بعقله السؤال: وبعد؟ ماذا بعد "عبد الناصر"؟ عن هذا التساؤل تعود "ماهر" أن يحكي لأصدقائه الشباب الذين يأتون لزيارة الضريح، ويقول:

- كتبت في مفكرة صغيرة تلات أسماء، وراهنت نفسي أن الريس الجديد مش هيخرج عنها، كنت غبي وخسرت الرهان.. لأني راهنت ع المصريين .. على إنهم مش هيقبلوا إلا اللي يضيف للتجربة مش يطرح منها، لكن .. حصل اللي كلكم عارفينه، وجالنا اللي مش بس طرح من التجربة، لأ .. طرحها أرضا وداس عليها.

كانت أول أزماته مع النظام الجديد في ١٩٧١م مع ردة مايو التي أطلقت عليها الصحف الحكومية وقتها "ثورة التصحيح"! وأطلق عليها من أراد أن يفرط في النفاق اسما هو "تصحيح الثورة"، كأن الثورة كانت خطأ يصححه النظام الجديد، وكان أول إنجاز للثورة الجديدة هو وضع القائد العسكري الذي أعاد بناء القوات المسلحة بعد النكسة في السجن! وظهر الرئيس الجديد في التليفزيون وهو يهدم المعتقلات! نفس المعتقلات التي سجن فيها بعد ذلك معتقلي

١٧و١٨ يناير ثم معتقلي سبتمبر، لكن "ماهر" احتفظ رغم ذلك بأمل في النظام الجديد، كان يذكر نفسه بالأرض المحتلة، وهدف التحرير الذي يجب أن تتوحد الأمة في سبيله خلف القائد الجديد، حتى يكون بمقدوره اتخاذ قرار معركة الكرامة والشرف، كان يلتمس للنظام العذر في أزمة مايو التي عصف فيها بأركان النظام السابق، فيقول:

- من حق كل رئيس تكون له إدارة متجانسة ومتفاهمة، وكمان إدارة تقدره وتحترمه .. مش تستخف بيه!

ومرت أيام .. ليشعر "ماهر" ببدايات الردة على خط الثورة الاشتراكي، لكنه تجاهلها تماما وكذب شعوره وهو يتطلع بقلبه للجبهة وسيناء من ورائها، ويزيد أمله في "عام الحسم" فلا يلبث الأمل أن ينقشع في "خطاب الضباب"، شارك في اعتصام ميدان التحرير ليدفع النظام الجديد لاتخاذ قرار الشرف، قبل أن يتحول احتلال سيناء لأمر واقع عالمي يجعلها مجرد قضية أخرى من قضايا الطغيان، وهكذا عاش بين الأمل واليأس، حتى جاء النصر في ١٩٧٣م، فهتف للمرة الأولى باسم الرئيس الجديد وغنى مع العندليب: **"عاش اللي قال"**، يقسم أنه كان في ذلك الحين يتغنى باسم الرئيس الجديد بكل حب وصدق، بل إنه وضع صورته بجوار صورة "عبد الناصر" في غرفة المعيشة بمنزله

في الحلمية، لكن .. حين توقفت المعارك في الرابع والعشرين من أكتوبر، وبالطريقة المعروفة التي حدث بها وقف إطلاق النار بشروط شديدة الإجحاف للجانب المصري، بالنظر إلى حجم الإنجاز المحقق، زادت مخاوفه من مرونة الرئيس الجديد التي يعلم يقينا أنها قد تصل لدرجة الليونة، لكنه حاول أن يلتمس له العذر، مواسيا نفسه بأن القيادة في موقف دقيق كهذا تدرك ما لا يستطيع هو أن يدركه، لم يبتلع بالطبع أسطورة الطائرة الأمريكية التي تحمل قنبلة نووية وتحوم حول القاهرة، لتمحوها من فوق الأرض لو رفضت مصر وقف إطلاق النار! كان يوقن أن حسابات الحرب الباردة أعقد من أن تسمح بهذا الخرف، لكنه أقنع نفسه أن القيادة رأت فيما تحقق ما يكفي لكسر الجمود وتحقيق سلام عادل لأطراف الصراع، لكن فرحة النصر لم تلبث طويلا، إذ أخذها "هنري كيسنجر" وطار، وأصابت "ماهر" نوبة الفصام الأولى في يناير ١٩٧٤م مع سحب القوات المصرية من شرق القناة وإجهاض العبور الذي تحقق بالدم وصبر السنين، ولبث حبيسا في مصحة نفسية لعدة شهور على إثرها، وعندما خرج من المصحة كان شخصا آخر لا يمت بصلة لماهر الذي كان متقدا بالحماس، فانكفأ على ذاته يتابع مسلسل الهوان الذي تعددت حلقاته على صعيد علاقات مصر العربية المتدهورة، وعلاقاتها الصهيونية المتصاعدة! ولم تكن

أوضاع الداخل أفضل كثيرا من أوضاع الخارج، فبرغم وعود الرخاء الاقتصادي شهدت البلاد موجة غلاء أعقبتها محاولة الحكومة رفع الدعم جزئيا عن السلع الأساسية استجابة لأوامر البنك الدولي، فخرج المصريون من ثباتهم مع قرصة الجوع في يناير ١٩٧٧م، ليسجل الشعب آخر انتفاضات الحياة في تاريخه الحديث، وقتها عادت في عروق "ماهر" الذي كان يعيش في شبه عزلة بمنزل أسرته دفقات من دماء حارة، فبرغم أنه ميسور الحال بفضل ما ورثه عن والده إلا أنه خرج مع الناس وهتف مع الهاتفين: **هو بيلبس آخر موضة .. واحنا بنسكن عشرة ف أوضة** .. كان الهتاف اللئيم يشير إلى لقب "أشيك رجل في العالم" الذي ألصقته أمريكا بالرئيس الجديد في إطار ممارسات غسيل المخ، كان قلب "ماهر" يرتعد لهفة على المهمشين وهو يهتف معهم بهتافهم الحار قائلا: **مش كافية لبسنا الخيش؟ جايين تاخدوا رغيف العيش؟**

وهكذا شارك المواطن "ماهر عبد المنجي" فيما أطلق عليه الرئيس "انتفاضة الحرامية"،وأطلق عليه التاريخ "انتفاضة الجوع"، وحاولت الشرطة تفريق الانتفاضة ففشلت، ثم فوجيء المتظاهرون بالقوات المسلحة تتدخل بأمر من الرئيس لفض المظاهرات، نزل الجيش للشارع في سابقة لم تحدث منذ يوليو،

فهزم الجيش المسلح شعبه الأعزل الجائع، وقبض على "ماهر" مع غيره من الثائرين على هدم الحلم الاشتراكي، ليجد نفسه في سجن الاستئناف لأيام لم تطل، قدم بعدها للمحاكمة، وكانت تهمته مع عشرات غيره أنهم **"أنشأوا منظمة ترمى إلى قلب النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة باستعمال القوة والوسائل غير المشروعة"**، وضحك "ماهر" في قاعة المحكمة حين ظهرت تسجيلات صوتية بين بعض المتهمين، إذ كان النظام الجديد قد ادعى أيام تمثيلية الديمقراطية ودولة المؤسسات أنه أوقفها منذ توليه السلطة، لكن ضحكته كانت قصيرة العمر، فحل الدمع محلها مع شعوره بالظلم البين وهو يسمع شهادات الشهود المملاة عليهم وتقارير المباحث الملفقة لحبك التهمة، وصدر عليه الحكم بالسجن عامين، لم يهونهما عليه غير مرضه، الشيزوفرينيا التي عاودته في السجن فأذهلته بضوضاء عقله عما يدور حوله، نقل إلى مستشفى الأمراض النفسية تحت الحراسة، ولم يغادرها حتى بعد انقضاء مدة سجنه لأن حالته المرضية لم تسمح بذلك، وحين استعاد شيئا من نفسه عام ١٩٧٩م وخرج للحياة ثانية، هاله أن دنياه التي عرفها خارج السجن قد رحلت للأبد، فلا الناس هم الناس ولا الشوارع هي الشوارع ولا الأحداث هي الأحداث

ولكل هذا، فمن الصعب أن نحكم لو كان قراره بالإقامة كحارس متطوع على ضريح الزعيم بعد وفاة الحارس القديم قرارا مختلا بسبب حالته المرضية، أم كان هذا القرار هو "عين العقل" حتى لا يفقد ما بقي من عقله، ففي الضريح على الأقل كان يلتقي بمن يفهمهم ويفهمونه من الناس، كأن باب ضريح الزعيم كان يرشح الناس فلا ينفذ منه إلا من يحب أن يراهم ويسمعهم.

(٣)

رجعوا التلامذة

يطيب لماهر السهر في حوش الضريح في ليالي الصيف لطيفة الهواء، وفي بعضها يأتي لزيارة الضريح ومجالسة "ماهر" بعض الزوار، طلاب جامعيون ممن لم يعاصروا شيئا مما عاصره، لكنهم قرأوا وأعملوا عقولهم خارج المقررات الداجنة المدجنة، ففطنوا لما لم يفطن إليه بعض من عاصر وشاهد، كان يشاركهم حديثهم في الشعر والتاريخ حينا وفي التراث والفن حينا، فإذا تطرقوا بالحديث لأمر من أمور السياسة .. كان يستعيد ذكريات بلون الدم وصوت الآهات وملمس الحديد الملتهب من أيام اعتقاله، فلا يشاركهم في حديثهم، أو يعلق إذا تحدث بمثل شعبي حينا، أو بمربعة من مربعات "ابن عروس" التي يعشقها عشقا خاصا، يجعله يقول عن "ابن عروس":

- الراجل ده كأنه عاش حياتي وكتب مربعاته عن أحداثها .. كلنا في الهم مصريين

سأله أحدهم ذات ليلة عن خلف الزعيم الذي سار على خطه بأستيكة فقال:

- **الندل ميت وهو حي .. ما حد يحسب حسابه ..**
تلاقيه كالترمس التّي .. حضوره يشبه غيابه[٨]

وحين سأل عن النظام التالي له قال:

- **مسكين مين يطبخ الفاس .. ويريد مرق من حديده ..**
مسكين مين يعاشر الناس .. ويريد مين لا يريده[٩]

وحين حكى له أحدهم عما جرى له من بهدلة في أمن الدولة، على يد ضابط امتهن آدميته ورجولته، ربت "ماهر" على ساقه وهو يقول:

- **سكت الهَوى والناموس طار .. والسبع طاطا بعينه ..**
خليه دا النومِ أستار .. لما الكلب ياخد يومينه[١٠]

ثم نصحه هامسا أن ينسى ذلك الضابط ويتركه ليد الله العادلة، رآه الحاضرون يحبس دمعة في أحداقه فشعروا أن حكاية الطالب وعذابه كانت قريبة مما مر به "ماهر" قديما في أحداث يناير .. آخر ثورات شعب مصر

[٨] مربعات ابن عروس
[٩] مربعات ابن عروس
[١٠] مربعات ابن عروس

(٤)

طريق العودة

كانت ليلته الشتوية تلك كئيبة وحزينة رغم اكتمال القمر، خلت من الرفاق ومن شيطان الشعر الذي يؤنسه في بعض لياليه، صلى العشاء ثم افترش سجادة الصلاة على الرخام البارد قريبا من الضريح، كانت سورة الإخلاص المنقوشة على شاهد القبر بمستوى عينيه، فقرأها بصوت مسموع ثم نظر في وجد للضريح وهو يردد في صوت هامس: **إرجع بأه .. وفك حبل المشنقة .. وامسح همومنا باللقا .. ياجدرنا تحت التراب .. يا حلمنا فوق السحاب .. يا عمرنا طال العذاب .. فإرجع بأه**[11]، لم يكن ينتظر من الميت عودة ولا إجابة، لكنه كان يدعو الله أن ينفخ في رحم الأمة من يلبس الدرع كاملة ويشعل النار شاملة[12]، والاستغاثة بالموتى واستقدامهم طقس بشري ضارب في القدم على كل حال، يبحث فيه الناس عن حلول من الماضي حين يبدو لهم المستقبل مظلما وضنينا بحلول مشاكلهم وعلاج آلامهم، هكذا كان يفكر وهو يمد يده

---

[11] شعر جمال بخيت في ذكرى جمال عبد الناصر في الثمانينات

[12] من قصيدة أمل دنقل "لا تصالح"

ليتناول الصحيفة التي وضعها جانبا قبل صلاته ثم يقلب صفحاتها بغير اكتراث كأنه قرأها ألف مرة، فهي صحيفة قومية عريقة، لا تجد في متنها جديدا إلا لو وجدت جديدا في متون الأهرام أو كتاب الموتى، لم يلبث أن نحاها ثانية ثم استلقى على ظهره ينظر لنجوم السماء من نافذة بجوار الضريح، فيرى السماء ملبدة تنذر بمطر عاصف .. وإن كان القمر بدرا .. فليس ببزوغ القمر وحده تصفو السماء!

لم يلبث في رقدته كثيرا حتى تنبَّه إلى حركة عند الطرف المقابل للضريح، وخيل إليه أنه يرى ظلالا على الرخام لشبح رجل جالس! فهل هو لص؟ ولكن ما عساه يسرق من هنا؟ فلعله زائر؟ ولكن كيف دخل ومتى؟ قطع "ماهر" تفكيره في الاحتمالات وانتفض ليقطع الشك باليقين، فتناول عصاه القريبة من يده ودار حول الضريح، ليراه جالسا على الدرجة الرخامية أسفل شاهد القبر فيغشى عليه من فوره، فلم يكن الجالس هناك إلا .. الرئيس .. "جمال عبد الناصر" شخصيا.

أفاق "ماهر" من إغمائه بعد برهة لم يعرف كم طالت، لكنه استنتج أنها قصيرة، فهاهو الزعيم مازال جالسا على الدرج الرخامي ينظر نحوه في إشفاق، متكئا بذراعيه على ساقيه كما كان يفعل في حياته، والسيجارة في يده لم تنقص كثيرا

عن المشهد الأول الذي سجلته ذاكرته قبل الإغماء، نطق بعفوية تعجب لها هو نفسه فقال:

- حمد الله ع السلامة يا "ريس"

- الله يسلمك يا "ماهر"

الرئيس يعرفه! يعرفه ويناديه باسمه! لم يضع العمر هدرا إذا في جوار الضريح .. ها هي رحمة الله تنزلت .. هاهو الصبر يأتي أكله .. لقد عرفه الرئيس فور عودته، خرجت من فمه عبارة عفوية وهو يقول:

- لكن سيادتك بطلت تدخين من كام سنة يا ريس؟

هكذا قال "ماهر"، كأنه يخاطب الزعيم قبل وفاته في أيلول الأسود، فلم يجبه وإن ابتسم تلك الابتسامة المحببة، قبل أن يقول:

- نادتني ليه يا "ماهر"؟ محتاج حاجة؟

- البلد يا ريس .. البلد هي اللي عاوزاك، شفت اللي جرالنا؟

- مالها البلد؟ جرى لها إيه؟

هكذا سأله الرئيس بلهجة تحمل حزن العارف بإجابة سؤاله، فأجاب:

- جرى كتير يا ريس .. كتير قوي .. غيطان القمح والقطن بقت بتزرع كنتالوب ولب أبيض! بقال التموين بقى سوبر ماركت .. والمكتبة بقت معرض سيراميك ولا أكسسوار محمول .. ضيعنا القطاع العام وفرحنا بالموبايلات والبورصة! قفلنا صيدناوي الجامعة وفتحنا براند نيمز، بطلنا الإسكان الشعبي وعملنا قانون الوهم العقاري، بعنا مجمعات الحديد والصلب والألومنيوم وعملنا مصانع شيبس ولبان

- كل ده طبيعي .. تطور طبيعي

صعق "ماهر" لسماع تلك الإجابة من الرئيس، فتح فاه مذهولا و لم ينطق بكلمة، حتى سمع الرئيس يستأنف قائلا:

- تطور طبيعي مادام بقينا بنسمع تعليمات البنك الدولي، ومادام بقينا في كفة واحدة مع ملكيات الخليج الصديقة للأمريكان، وبقينا بنقول على كفاح لبنان وثبات سوريا واستقلال إيران تطرف ولا واقعية وخروج على المجتمع الدولي والشرعية الدولية

- ده انت متابع كل حاجة يا ريس؟

بدت على وجه الزعيم علامات ألم وأسى وهو يقول:

- أيوة .. للأسف متابع كل شجرة غرستها وهي بتنشف وتموت .. كل مصنع بنيته وهو بيتهد ويتبني مكانه مول تجاري أو كباريه

انتفض "ماهر" كأنه يرفض أن تسيطر هذه اللهجة اليائسة البائسة على حديثه مع الزعيم بعد أن تحقق الحلم المستحيل، وقال:

- بس خلاص .. مش مهم .. كله يتعوض مدام رجعت يا "ريس"، نأمم اللي اتباع؟ ونبني اللي اتهد؟ قدها وقدود يا ريس

- جميل .. جميل حماسك يا "ماهر" .. بس ليه؟ نأمم ليه ونبني ليه؟

- علشان مصر يا ريس

هكذا أجابه "ماهر" وهو يتعجب من صدور هذا السؤال منه هو بالذات، فأجابه الزعيم بقوله:

- الإنسان "يا ماهر" بيبني عادة علشان الخلود .. علشان يمد عمره القصير ع الأرض بخير يسيبه لأجيال جاية، علشان كده بنيت أنا واللي سبقوني في حب مصر وأهلها، لكن .. كنا غلطانين .. التطوير والبنا ف مصر مش طريق للخلود، لأن البنيان عمره من عمر الباني، لو مات يموت معاه، سواء كان البنيان سد عالي ولا قطاع عام ولا مباديء وطنية وأفكار قومية.. ده حتى الدين عندنا عمره من عمر الحاكم، كنا

مسلمين على المذهب السني لحد ما ظهر سيف "المعز" ودهبه.. غيرنا المذهب وبقينا شيعة اسماعيلية، ولما "صلاح الدين" أنهى الخلافة الفاطمية رجعنا تاني سنة ع المذهب الشافعي في يوم وليلة، لأن السلطان كان شافعي، وبعدين احتلنا الترك الأحناف فقلبنا ع المذهب الحنفي برضو في يوم وليلة، وقيس على كده كل حاجة .. غنينا قبل الثورة للملك وقلنا عليه "الفاروق" .. لقبنا "فاروق" ابن "نازلي" بلقب "عمر بن الخطاب"! وقامت الثورة فغنينا للاتحاد والنظام والعمل، ولما "السادات" مشي على خط الثورة بأستيكة برضو غنينا وهللنا لديمقراطية المخالب والأنياب.

التقط "ماهر" الخيط حين سمع اسم الرئيس "السادات"، فكأنه أراد أن يجعل المعضلة محدودة في شخص "السادات" حتى يحتفظ بالأمل في التغيير، فقال:

- ما هو "السادات" يا ريس .. "السادات" هو اللي ..

لكن الرئيس قاطعه فقال:

- عارف كل اللي عمله وقاله، وعذرته فيه، إنت مش بتحب مربعات "ابن عروس"؟ ماسمعتش مربعة بيقول فيها: **قالوا لفرعون يا فرعون .. إيه فرعنك ع الخلايق .. قال مالقتش راجل فلت عود .. وردني للحقايق**

- لكن ...

يقاطعه "عبد الناصر" مرة أخرى بلهجة حازمة:

- أنا جاي الليلة أقولك كلمة واحدة بس، شكرا لوفاءك لكل حاجة حلوة اتزرعت في يوم من الأيام في تراب مصر، بس كفاية كده، إرجع بيتك وحاول تعيش الدنيا الجديدة، الحلم خلاص .. راح مع اللي حلموا بيه وصدقوه، ولو جه بدل "عبد الناصر" ألف "عبد الناصر"، مش هيقدروا يحيوا اللي مات في الشوارع والحارات

هكذا قال الزعيم، ثم قام بقامته المديدة واقفا، ألقى بعقب السيجارة على الأرض وأطفأه بحذائه قبل أن يرفع يده بالسلام مودعا، في تحيته تلك القريبة من التحية العسكرية، ثم استدار راحلا فهتف به "ماهر" في لهفة:

- هتسيبنا تاني؟

التفت "عبد الناصر" نحوه وقال:

- فاكر يا "ماهر" لما الإخوان المسلمين ضربوا علي نار في المنشية، وقفت يومها وهتفت: **إذا مات "عبد الناصر" كلكم "عبد الناصر"** ..

- طبعا فاكر يا ريس

- كنت غلطان! من الشجاعة إني أعترف بالخطأ .. كل اللي حصل من سنة سبعين للنهاردة يثبت إن "عمرو بن العاص" فهم المصريين أكتر مني لما قال: **رجالها لمن غلب**

هكذا قال الزعيم واستدار راحلا.. حاول "ماهر" أن يناديه ثانية لكن صوتا لم يخرج من حلقه، حاول وحاول وشعر بعرق بارد غزير يتفصد من جسده المسجى على سجادة الصلاة، وتسارعت ضربات قلبه وهو يحاول القيام من رقدته فلم يستطع حراكا.. في مساء اليوم التالي أتى بعض أصدقائه من الطلاب لزيارته فوجدوه راقدا على سجادة الصلاة .. وقد فارقته الحياة، وتعجبوا حين رأوه قابضا بيسراه على عقب سيجارة وهو من لم يدخن طوال عمره! حاولوا الحصول على تصريح بدفنه بجوار ضريح الزعيم، فهو من عاش عمره حارسا له، لكن محاولتهم الرومانسية فشلت بالطبع، فدفنوه في مقابر أسرة واحد منهم في مدينة نصر، وكانوا أول الأمر ولبضع سنوات بعد وفاته يزورون قبره بانتظام ويروون ذكرياتهم معه ونوادره التي تمت عن ذكاء متقد، ثم مرت السنوات فتفرقوا وندرت مقابلاتهم شيئا فشيئا حتى انقطعت، وسرعان ما تنازلوا واحدا تلو آخر عن أفكارهم التقدمية في خضم الحياة، نسوا الكادحين أثناء كفاحهم المضني حتى لا يصيروا هم ذاتهم من الكادحين

فقط واحد منهم ظل على وفائه لماهر، إنه ذلك الطالب الذي سرى عنه "ماهر" يوما بعد خروجه من المعتقل، بقي يزور القبر بانتظام كما بقي مشغولا بآلام وآمال الكادحين والمهمشين، وكان هو من دفن "ماهر" في مدفن يخص أسرته، فكان كلما جلس أمام العين التي أودع فيها جسد الرجل الطيب، يقرأ له الفاتحة، ويعقبها بحديث شريف اعتاد المرحوم أن يردده، يقول نصه: **"اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين"**، أخبره أحد الأصدقاء الذين تغيرت وجهتهم من اليسار إلى الإسلام السياسي أن الحديث ضعيف الإسناد، أجابه يومها قائلا:

- لكنه قوي بمعناه ومغزاه .. لمن يفهم معناه ومغزاه

حوار مع صديقي المؤسف

غابت شمس الإسكندرية خلف تخوم السحب في ذلك اليوم شتوي الطقس من يناير، كانت درجة الحرارة خارج السور الزجاجي للمقهى منخفضة للحد الذي جعل الدكتور "عماد عز العرب" ("ع. ع." كما يسميه طلبته في قسم الفلسفة بكلية الآداب) يتنازل عن فكرة وجبة السمك الشهية ويكتفي بقطعتي باتيه مع الشاي الساخن في مقهاه المفضل على كورنيش الرمل، فالجو منذر بمطر غزير، ولو أراد تناول طاجن السبيط في مطعمه المفضل في بحري سيكون عليه أن يترك سيارته الفولفو السوداء العتيقة موديل السبعينات في شارع "إسماعيل صبري"، قرب نهايته عند باب واحد، لأن الشارع الفرعي الضيق الذي يقع به المطعم لا يتسع لوقوف السيارات على جانبيه، وإلا ناوشتها قبلات جانبية من عربات الكارو التي تحمل السمك من حلقة الأنفوشي، والسير على الأقدام في شوارع بحري الفرعية النصف ممهدة بعد المطر ليس بالفكرة

الجيدة من وجهة نظر البنطلون والحذاء, بينما كان "عماد" يتناول الباتيه ويرشف الشاي، بدأ المطر في الهطول بغزارة دفعة واحدة على عادة أنواء الإسكندرية، إنها نوة "الفيضة الكبيرة" التي تأتي في شهر طوبة من كل عام، ولم تمض برهة قصيرة حتى دخل من باب المقهى رجل ملتحي يرتدي جلباباً قصيراً يعلو كعبه بقرابة الشبر، وفوقه سترة سوداء طويلة من الجلد قد بللها المطر، كانت لحيته حالكة السواد تصل إلى صدره، بينما تعلو رأسه عمامة مكونة من طاقية حجازية لف حولها شالاً باكستانيا أبيض تدلت ذؤابتاه على كتفه، إنه الزي الذي انتشر في مصر منذ السبعينات، عندما استوردت القيادة السياسية ثقافة إسلامية آسيوية معنية بالمظاهر وجانحة للعنف، أشاح "عماد" بوجهه عن الداخل، فعاد متجها ببصره وقلبه ناحية البحر الذي هام به منذ طفولته الباكرة لونا وصوتا وملمسا كأنه عشيقته، لا يخفي "عماد" انزعاجه من ذلك التيار المتنامي وكل تيار يشبهه، نعم يحترم حرية المظهر للجميع، ولا يريد بالطبع أن يُمنع مسلم أو مسيحي من ارتداء ما شاء وقتما شاء، لكنه يرى في المظاهر الطائفية المتصاعدة في بلد له تركيبة مصر السكانية نذير شر مستطير، فالطائفية شعور وحالة من حالات الوعي الجمعي، وهذا الوعي الجمعي يتأثر بالمظهر، لهذا لنا أن نقلق حين تتزايد ملامح التمايز الطائفي بيننا، فكلما طالت

اللحى وقصرت الجلابيب زاد حجم الصلبان فوق الصدور! ثم تتجاوز الظاهرة الأفراد للمركبات، فالمسلم يلصق فوق زجاج سيارته إشارات دينية أشهرها السيف تحت الشهادتين! ويعلق مسبحة في مرآتها، والمسيحي يستعمل ملصقات مشابهة أشهرها السمكة التي كانت رمزا مسيحيا في عصر الشهداء، ويعلق صليباً في المرآة، مظاهرة يقول بها كل فريق للآخر "**أنا هنا وأزداد عددا وقوة كل يوم**"، وليست المظاهر ما يقلق، ولكن ما يكمن خلفها من عقلية التشرذم والكانتونات هي مكمن الخطر

بينما هو غارق في هذه الخواطر المتتابعة، أتاه صوت من يمينه قائلاً:

– "عماد عز العرب"؟

فالتفت وإذا بمحدثه هو صاحب الجلباب الأبيض واللحية الكثة نفسه، فأجاب والدهشة تعقد لسانه:

– نعم .. أنا "عماد"

– أعرف أنك هو، وإن كانت السنون قد نقشت على صفحة وجهك تاريخها

شعر بالحرج، فالظاهر من العشم الذي يتحدث به الرجل أنه يعرفه، وهو كذلك يشعر بألفة مع ملامحه حين اقترب، لكنه

لا يذكر اسمه ولا أين التقى به؟ لعله زميل دراسة قديم من المرحلة الجامعية أو الثانوية، لم تطل حيرته إذ قطع الرجل الصمت قائلا:

— مدرسة طنطا الثانوية للبنين، أم أنك صرت سكندريا ونسيت طنطا وأهلها؟

تذكره من طريقة كلامه المميزة، هو "محمود نافع" بطل الملاكمة في مدرسته الثانوية، كانوا يطلقون عليه "محمود التور" لقوة بنيته واندفاعه، قام من كرسيه معانقاً زميله القديم ومعتذراً عن عدم التعرف عليه، وتحجج بالهيئة الجديدة التي اتخذها "محمود" لنفسه، فأجابه صاحبه قائلا:

— ليست هيئة فقط .. بل قلبا وقالبا والحمد لله، عقبالك

بدأ الصديق القديم في ممارسة واجبه الدعوي مبكرا، هكذا فكر "عماد" فاستقر رأيه على أن يقتصر على الترحيب، وربما واجب ضيافة سريع لو لزم الأمر ثم ينسحب من اللقاء قبل أن يتطور بينهما الحديث، فقد علمته التجارب أن حديث الأضداد ينتهي عادة بجفاء شديد، وقد ينتهي بما هو أكثر من الجفاء، لهذا دعاه للجلوس وهو يتمنى أن يعتذر، لكن "محمود" سحب الكرسي المقابل له وجلس بعد أن كوم الجلباب بيمناه في حجره، قائلاً:

— كم وعشرون عاما تفصلنا اليوم عن هاتيك الأيام؟ عرفت أنك دخلت كلية الآداب هنا في الإسكندرية، وأحسبك حصلت على الليسانس منها؟

— الليسانس وبعده ماجستير في فلسفة "ابن طفيل" ودكتوراة في فلسفة "ابن رشد"، وأعمل حاليا كأستاذ مساعد في قسم الفلسفة، وأنت؟ كيف حالك اليوم؟

ضحك "محمود" بهدوء وهو يقول:

— مجموعي أهلني بالكاد للمعهد الفني التجاري بطنطا، لكن "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" .. صدق الله العظيم .. في المعهد شرح الله صدري وأبعدني عن صحاب السوء، وفقهني بفضله في الدين وله الحمد والمنة، لكني لم أتم دراستي .. وجدت نفسي في التجارة وأعانني في ذلك بعض الإخوة الملتزمين

جاء النادل فوقف بأدب خلف "عماد" الذي التفت إليه ثم إلى "محمود" سائلاً:

— ماذا تشرب يا "محمود" بك؟

— قرفة باللبن إن شاء الله

— وأنا سآخذ قهوتي

انحنى الجرسون ثم انصرف فقال "محمود" معلقا:

– يا رجل نادني بمحمود، ولو لابد من ألقاب فلتكن الشيخ "محمود"، ألغى صاحبك البكوية منذ عقود، أما زلت ناصريا أم هداك الله؟

– هدانا الله جميعا، لم أكن ناصريا أبدا، فبرغم تقديري للزعيم الراحل وقناعتي بكثير من سياساته وتوجهاته، إلا إنني لا أؤمن بالانتساب لفرد أيا كان

– أي توجهات وأي سياسات؟ يداه ملوثتان بدماء رجال عظام، رحم الله الشهداء "عبد القادر عودة" و"سيد قطب" صاحب "الظلال"

كتب القتال على "عماد" في هذا اليوم المطير إذا وفي حوار لم يكن متحمسا له منذ اللحظة الأولى .. لكن .. ولم لا؟

لقد كتب "مصطفى محمود" في السبعينات كتابه الشهير "حوار مع صديقي الملحد"، أما اليوم فقد تبدلت الدنيا، وارتفعت نبرة التطرف الديني لعنان السماء، وهي لا تقل خطرا عن الإلحاد إن لم تزد عليه، فالإلحاد انحراف فكري شخصي لا يتجاوز ضرره صاحبه، فلم نسمع بجماعة ملحدة حاولت الاستقلال بحي من أحياء القاهرة ونصبت عليه أميراً! ولا قرأنا

عن ملحد يستحل مال المؤمنين ويسرق متاجرهم! الإلحاد موقف سلبي لا يؤثر علينا في شيء، أما التطرف فقد أفرز كل هذا الخبال بحياتنا، فلماذا لا يحاوره حوارا يكتبه وينشره؟ حوار مع صديق مؤسف ممن غطت صورتهم الضبابية على صورة المسلم المستنير كما أرادها الله؟ دار هذا في سريرة "عماد" قبل أن يخرج سيجارة من علبته ويشعلها، ثم يسحب نفسا عميقا ويعتدل فوق كرسيه تأهبا للحوار ويرد على الزميل القديم فيقول:

– الشيخ "سيد قطب" لم يعدم بسبب كتابه "في ظلال القرآن"، ولا حتى بسبب تكريسه الفكري للإرهاب في كتابه "معالم على الطريق"، وإنما بسبب ضلوعه في مؤامرة عام خمس وستين، ودوره فيها ثابت باعترافه واعترافات غيره

– اعترافات تحت التعذيب

– وكتاب "معالم على الطريق" الذي دعا فيه لتغيير نظام الحكم بالعنف، ثم تغيير المجتمع بالإكراه، هل كتبه تحت التعذيب؟

– كتبه وهو أسير في سجن النظام الكافر، فكان شديدا في الحق

— غريبة! جرت العادة أن النظام الذي يعذب المساجين لا يوزع عليهم أوراقا وأقلاما ولا يسمح لهم بالكتابة

أسقط في يد "محمود" من تلك الملحوظة، فتبدلت ملامحه من الحدة والحماس إلى هيئة لينة كأنه قرر تغيير الاستراتيجية، وقال بصوت هادىء:

— يا أخي .. أعرف طيب سريرتك، ولهذا أخشى عليك من شدة يوم عظيم، فحبك لمثل هذا الرجل يجعلك تحشر معه، ومثله سيكون محشره عصيبا

ضحك "عماد" وهو يعجب من مهارة الزميل السلفي في تحويل دفة الحوار ، ثم قال والابتسامة لا تفارق وجهه:

— مهلا .. أنت تحدد مصير الرجل يوم الدين، فكأنك تتألى على الله جل وعلا، الرجل بين يدي ربه إن شاء عذب وإن شاء غفر، فلا تنذر بمالا تملك لنفسك منه نجاة

ظهرت على "محمود" علامات الحماس، فقد أعطته الجملة الأخيرة دلالة على خلفية دينية لدى "عماد" أغرته بالدق على وترها، فاقترب بجزعه من الطاولة قائلاً بلهجة ودود:

— صدقت، لهذا أخشى عليك .. لأني أحبك في الله منذ صبانا .. سبحان الله، "**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**"، ماذا أقول؟ أسأل الله العلي القدير أن يهديك

جاء النادل بقهوة "عماد" وقرفة صديقه، فوضع المشروبات على الطاولة وبجوارها وضع كوبين من الماء البارد، تناول "محمود" أحد الكوبين بيمينه ورفعه إلى شفتيه بعد أن جمع لحيته الكثة وخفضها بيسراه، ولدهشة عماد بدأ صديقه يرشف الماء من الكأس بصوت مسموع، توقف بعد رشفتين وأبعد الكأس عن فمه ثم أخذ شهيقا عميقا وزفره، ثم أعاد الكرة ثلاث مرات قبل أن يضع الكأس على الطاولة وهو يمسح ما تسرب من خيوط الماء على لحيته، فلما رأى "عماد" ينظر إليه مندهشا قال:

— مالك؟

— ماذا كنت تفعل؟ لماذا تنفث في الكوب كأنك ..

— لا تتجاوز حتى لا تقع في محظور، هكذا كان سيدك المصطفى صلاة الله وسلامه عليه يشرب، وأنا أتحرى سنته، يا رجل .. حصلت على درجة الدكتوراة ولا تعرف بديهيات دينك؟

— بديهيات؟

— طبعاً فقد روى "البخاري" في صحيحه عن "أنس بن مالك" أن الرسول أمرنا بمص الماء مصاً من الإناء وأن نتنفس

ثلاثاً أثناء الشرب، وقال أن هذا "أروَى وأمرأ وأبـرأ"، وذاك من إعجاز الطب النبوي .. نعم

قاوم "عماد" رغبة في الضحك حتى لا يشعر ضيفه بالحرج وقال:

– وما الإعجاز في هذا؟

– نصيحة الرسول هذه تقينا من تضخم الرئتين وضيق الشرايين التاجية وتضخم الكبد والاستسقاء والعياذ بالله، فقد سمع طبيب ألماني بهذا الحديث فأسلم لأنه وجد فيه علما جما، سبحان الله .. سبحان الله

– يا شيخ "محمود" .. لو أن طبيبا عالميا أسلم لهذا السبب لاحتل الخبر مانشيتات الصحف وبرامج الفضائيات فورا

– ينكروه لأنهم متآمرين على الإسلام والمسلمين

– آه .. نظرية المؤامرة هي دايما نهاية المطاف!

– صرت مشككا كالفلاسفة، رحم الله الإمام "الغزالي" يوم كتب كتابه القيم "تهافت الفلاسفة"

ضحك "عماد" وهو يتناول رشفة من قهوته ثم رد قائلا:

– ورحم الله "ابن رشد" يوم فند أطروحاته في "تهافت التهافت"، ولكن .. هل قرأت "تهافت الفلاسفة"؟

– سمعت عنه في درس من دروس المسجد

كان متيقنا من ذلك أيضا، فهؤلاء قوم لا يقرأون قدر ما يسمعون الخطب والدروس العامرة بالكلام المرسل كأي إعلام موجه يهدف لغسيل مخ المتلقي! علق "عماد" على إجابته بقوله:

– لابد في مسجد "الوليد" في شارع أوزوريس، مستعمرة جماعتكم في طنطا؟

قطب "محمود" حاجبيه و هو يقول منفعلاً:

– لا والله، بل دوحة الجماعة وبيضة الإسلام في طنطا بإذن الله، ولو كره الكافرون، أتسمي بيتا من بيوت الله مستعمرة؟

– قصدت الشارع وليس المسجد، فقد انتشرت فيه مكتبات ومحلات عطور ونباتات طبية، وكلها تصب في اتجاه ثقافة واحدة، ثقافة الهروب للتخلف

هنا هب "محمود" واقفاً، وقال:

– أعوذ بالله، لقد أفسدتك الفلسفة، سأمضي لحالي

قام "محمود" منزعجا وأصر أن يدفع ثمن القرفة، وحين حاول "عماد" منعه من ذلك قال أنه لا يقبل أن يشرب أو يطعم من ماله الذي كسبه من الفلسفة الكافرة، هنا تركه

"عماد" واستدار عائدا لطاولته بجوار النافذة، فخرج "محمـــود" وهو يردد في سره قول الله تعالى **"مَا يُجَادِلُ فِيٓ آيَاتِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلاَدِ"** بينما طلب عمـــاد قهوة ثانية وقد عاد لقناعته القديمة باستحالة الحوار بين عقـــل وآلة تردد ما سجل فيها، في تلك الحالة يصبح الحوار كـــصلاة المرائي .. بلا جدوى ولا منطق، وقد يتطور لما هو أسوأ .. **"لا تناقش أبدا مسدسا أو حاكما فردا فأنت آمـــن"**[13] .. كـــم يصدق هذا البيت في حالتنا نحن العرب من المحـــيط للخـــيج، فمسدس الفكر **"الوصولي"** المتطرف والحاكم الفرد كانا دائمـــا وجهين لعملة مزيفة واحدة، عملة لا تشتري غير الخواء.

---

[13] شعر نزار قباني

في هذا الكتاب

في هذا الكتاب

تأملت وجهه قليلا ثم سألته عن سبب لجوئه للمحترفات، ليس شيخا فانيا يريد من "تشد عصبه" على حد تعبيرها، ولا سائح خليجي من ذوي الشماغ جاء يصيف في الثغر ويريد امرأة سهلة وسريعة كالوجبات الأمريكية، ولا رجل أعمال أو سياسي ليس لديه الوقت ولا المشاعر التي يربح بها قلب امرأة فيلجأ لشراء ما يعجز عن كسبه، فهي تراه شابا في عنفوان الرجولة، فلو رغب عن الزواج لأي سبب فهناك الهاويات اللاتي فقن المحترفات عددا حتى أفسدن على بنات الكار سوقهن، نظر إليها في تردد وهو يفكر في مدى حكمة مصارحة مثلها حتى وإن أنس إليها، لكنه سرعان ما زجر نفسه عن تلك النظرة المستعلية التي طالما انتقدها في غيره، فهي لم ترتكب أكثر مما ارتكب هو، بل لعل لها من العذر ما ليس له، لهذا أجاب بكلمة واحد:

- الصراحة

- طبعا عاوزة الصراحة أمال عاوزاك تشتغلني!

ضحك بشدة مع بخار الخمر الذي بدأ يصنع طبقة رقيقة على ذهنه، ثم أوضح لها أن الصراحة هي الجواب على سؤالها، فالصراحة والوضوح هما ما يدفعانه لتفضيل علاقتهما التي يراها الناس شاذة على غيرها من أشكال علاقة الرجل بالمرأة

